بحر الظلمات

تأليف
د. نبيل راغب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



١

مع حلول الظلام قبع المقهى العتيد على الربوة الصخرية المتجهمة بالحسك والشوك كحيوأن بحرى أدركه التحجر عليها منذ عصور سحيقة ! تخلى عن وحشيته ليفتح قلبه لكل صيادى المنطقة ، خاصة فى الأيام التى يقضونها على اليابسة بين كل رحلة وأخرى . ومضت عيونه بأضواء داكنة خلف نوافذه الزجاجية الصدئة بضباب الملوحة الرطبة ، والتى لم تحاول من قبل منع هدير البحر وضرباته على الساحل الطويل من التسلل والامتزاج بأحاديث الثرثرة الجارية داخل المقهى ، وسحابات الدخان المتصاعدة من أفواه وأنوف مدخنى النارجيلة والجوزة ، ورشفات الشاى الأسود من الأكواب الصغيرة الملوثة ببصمات الأصابع التى لم تخل من عفونة سمكية عابرة .

تناثر الصيادون حول الموائد الخشبية الكالحة . تدثر كبار السن منهم بعباءات سوداء وعمامات بيضاء فوق وجههم المتغضنة المحترقة بسياط الشمس ، فى حين اكتفى الشباب منهم بالجلابيب البنية والرمادية والكحلية والطواقى البيضاء فوق وميض عيونهم الذى يمزج الحزن بالقلق بالمجهول بالغزيمة المتمددة فى خيوط المصابيح الغازية ، وهم يستمعون إلى حورية فتاة المقهى ذات الصوت الشجى الدافئ ، والجسد الممشوق العفى الملتف بجلباب أزرق ضيق صاخب فى صعوده وهبوطه كموج البحر . ربضت

على مقعد عال لتنساب خصلات شعرها السوداء على كتفيها وظهرها ، ولتداعب أناملها القوس المتراقص على وتر الربابة :

— البـنت قعـدت ومسكــوا النــاس فى سيرتها
عايشة معهـــم لكـــن م الـــعين راميـــينها
عاوزيـــن يزيحوا المعـــارة والكـــلام عنهم
فراحـــوا جابـــوا حسن فى البـــيت قدامهـــا
نعيمـــة شافت حسن داخـــل مع اخـــوتها
كان واحـــــد ضربها ظرف وخــــــوتها
لسانها متحـــاش مش قادرة على اخـــــوتها
حسن طلع على السلم من ضربة واحدة نزلت
الراس على السلم زعقت نعيمة وقالت يا سلام
سلـم الـراس خدوهـا دفنوهـا فى قلب التبـــن
والجثــة رخـــره فى قلب البحـــر راميـــنها
الجثـــة عامت وهـــى راحت على بلــــده
ع الشط ركنت وطالبـــة الدفـــن فى بلـــده
الدق الأخضر بينطق على دراعـه اليمين إحسان
وبـــنت عمـــه نازلـــة فى الصبـــاح تملا
شافت الجثـــــة مالت على دراعـــــــه
لفت دراعـــه بينطـــق فى الحروف إحسان
راحت خبرت فى البلد أم حسن قالت ابنى له
تلات أيام غايب راحت عن الجثة وبتحقـــق

عيونها عامت لكن للجثة بتحقق ما عرفتوش
لكن نهودها باللبن حنت يا عينى على ابنى
قتل مظلوم وهو بارى ....»

صاح مرسى الذى كان يلتهمها بعينى الصقر :

ـــ ما لنا ومال حسن ونعيمة !! نحن نعشق المواويل السواحلية !

توقفت حورية عن العزف والغناء وقد نضح التحدى فى عينيها :

ـــ أولا أنا من بحرى يا سى مرسى .. مثل نعيمة تماما .. والبحراوى أخو السواحلى !

أزاح مرسى الطاقية إلى الخلف قليلا :

ـــ لكن حسن من بنى مزار .. يعنى من المنيا قبلى !

انبرى يونس البرهومى ليواجه مرسى مدافعا عن حورية بمجرد انتهائه من كوب الشاى :

ـــ ما لهم الصعايدة ؟! كلنا أبناء حواء وآدم !

دق مرسى بيده على المائدة الصغيرة المتآكلة وهو يساوى أطراف شاربه فى تحد ثقيل :

ـــ طبعا .. الموال على هواك !! جاءت هى من البحيرة .. وأتيت أنت من المنيا .. هى نعيمة وأنت حسن !! أليس كذلك ؟!

ـــ عجيب أمرك والله .. أتى جدى إلى هنا منذ سبعين عاما .. وقد ولدت هنا .. ولا أعرف مكانا لى على سطح الأرض سوى هذا المكان الحبيب إلى قلبى وقلوبنا جميعا !!

ـــ أتحاول أن تتبرأ من أصلك وفصلك ؟!

— أنا فخور بأصلى وفصلى فخرى بكم تماما .. لا تحاول التلاعب بألفاظى !!

— وما دام لكم أصل وفصل .. لماذا هاجر جدك من بنى مزار ؟! وأبوها من كفر الدوار ؟! هل الهواء هنا أكثر إنعاشا ؟!

انتفض يونس واقفا بقامته الهيفاء وقد اقترب خطوة من مرسى مشمرا عن ساعدين سمراوين قدا من حديد :

— مرسى .. اسحب ما قلته فى الحال أمام كل الرجال .. وإلا جعلتك عبرة لمن يعتبر !

جثمت على المقهى رهبة ثقيلة مشبعة بالرطوبة والملوحة . شدت خيوط السكون العيون اللامعة إلى مرسى الذى اجتاحته قشعريرة امتزجت بهدير البحر الغارق فى الظلام خارجا . نظر إلى يونس الذى بدا كالطود الشامخ بوميض عينيه السوداوين وانطباقة شفتيه فى إصرار مميت تحت بروز شاربه الكث . أنزل مرسى ساقا من على ساق وأشاح بوجهه بعيدا عن شظايا نظرات يونس وتمتم :

— آسف ! لم أقصد إهانتك .....

ثم أضاف كلمات مدغومة غير واضحة لم يهتم يونس بسماعها وعاد إلى جلسته واضعا ساقا على ساق ! صاحت حورية فى ضحكة حاولت بها إزاحة الرهبة الثقيلة المشبعة بالرطوبة والملوحة :

— حصل خير ! هل ترغبون فى سماع بقية الموال ؟!

سرى الارتياح فى العيون واسترخت السواعد والسيقان المشدودة ويونس يقول :

ـــ تفضلي !! لم نسمع أجمل من صوتك فى هذا المكان !

أسند مرسى رأسه بين ذراعيه وقد سد أذنيه ، لكن حورية شرعت فى مداعبة الربابة صادحة بصوتها الآسى :

ـــ جت النيابة أمرت للجثة بالدفن وضابط المباحث
لبس حرمه ع البحر متخفي وجد نعيمة على البحر
وهى تبكى سألها مالك حزينة يا اللى معاكى لاخر أنا أبكى
قالت لها روحــى وسيبينى أنــا لا بابكــى على
مال ولا دنيا أنا بابكى على اللى اتقتـل مظلــوم
قالت لها إذا كنتى حبيتى أنــا جبـيت قبليكــى
وإذا كنت عاوزه مساعدة الــروح جيتا ليكــى
ضابــط المبــاحث سمع أقــوال قيدهــا قالت
أبويا وأخويا جابوه على السلــم هنـاك قتلــوه
الراس خدوها فى قلب التبــن دفنوهــا والجثــة
لاخرى فى قلب البحر رموها ضابــط المبــاحث
جاب نعيمة بالجيل قيدهــا وهجــم ع البــيت
بيفتش . أخوها وأبوها اتحطم فى قلب السجن »

تطايرت آهات الاستحسان والانسجام من أفواه الصيادين ! لم يتجاوب مرسى معهم لكن أحدا لم يعبأ به ! صفق لها يونس وقد احتواها بعينين فاضتا بينابيع الحنان المتدفق مع أمواج البحر الصاخب فى الظلمة خارجا . انتشت حورية فأعادت مقاطع مبكرة من الموال :

— داری علی بلـــوتك یا للی إنكـــويت داری
ونعيمـــة وأمـــه بيرغـــوا فى الكـــلام الاتـــنين
فى المدة ديـــه حسن نايم وروحـــه سارحـــة
وكان مشغول فى منامه رأى غزالة خايفة من الصياد
قالت له قوم يا حسن جرنى من الصيـــــاد
خلاهـــا جنبـــه وكان مشغـــول ساعتها
وسأل عن اسمهـــا ومـــنين فى ساعتها
قالت له على البلـــد والاسم نعيمـــة
عاوز يا خدهـــا يوديها فى نصف الليـــل
والسكـــة وحشة وييجـــوا الـــلصوص يخدوهـــا
أرض الصعيـــد فى خطـــر فيها الضرر بالليـــل
إن شافـــوا حاجـــة مع مخلـــوق يا خدوهـــا
بيقلعـــوا الزراعـــة ويهينوا الرجـــال بالليـــل
وتـــروح نعيمـــة وأهـــل الشر يخدوهـــا
خلاهـــا عنـــده وبـــيتها فى أعـــز مكـــان
ونـــام لوحـــده لأنـــه بالتقـــوى معـــروف
ضرب لهم الرمل وقال لهم بنتكم فى أمان ما تخافوا »

انتفض مرسى واقفا وغادر المقهى دون أن يلقى السلام ! توقفت حورية عن الغناء فقال صياد عجوز وهو يلف بعض التبغ فى ورقة بيضاء خفيفة :

— خرج والشرر يتطاير من عينيه ! أرجو أن تفوت الليلة على خير !

تركت حورية الربابة فوق مقعدها وهرعت لخدمة زبائن المقهى فى

حيوية متدفقة . استدار يونس ليقول للشيخ الجليل :

ــ ومن أين يأتى الخير فى هذا الزمن الكريه ؟! أصبحنا نتنفس الشر فى كل لحظة نحياها !! لو كان مرسى هو المشكلة لهان الأمر ! لكن القضية أكبر من هذا بكثير !!

تراوح وقع كلماته على وجوه الحاضرين بين قلق وتوجس وخيفة وتجاهل ويأس وإرادة مكبوتة ، لكن الجميع فهموا قصده الذى لم يكن له قصد غيره ! همس الصياد العجوز :

ــ الحيطان لها آذان !

لم يخفض يونس من صوته الجهورى الأجش :

ــ لم يعد هناك ما أخافه بعد غرق قارب أبى جهارا نهارا وعليه أبو حورية وأخوها إبراهيم وأخى محمود !

أطلق صياد كهل سحابات كثيفة من دخان نارجيلته وهو قابع فى ركنه قائلا وهو يتلفت حوله :

ــ الأعمار بيد الله !

ــ ونعم بالله يا عم جابر ! لكن هل تعتقد أن أبى الذى قضى حياته فى البحر كان عاجزا عن العودة مع مجموعته سباحة !

عاد الصياد العجوز إلى همساته الملحة وكأنه يحاول إقفال الموضوع :

ــ البحر ليس له كبير يا يونس !

ــ معك تماما يا عم عبد الرحمن ! لكن ألم يكن من الممكن أن يعود ولو واحد منهم ليقص ما وقع لهم !

هلت حورية لتضع أكواب الشاى والحلبة والقرفة على مائدة يونس وقد

انحنت فى ابتسامة وادعة حزينة :

— ليست لنا حيلة مع القضاء والقدر !

بادلها يونس الابتسام لكن وميض الإصرار لم يتراجع إلى قاع عينيه :

— القضاء والقدر يسكنان فى السراى التى بناها على أعلى تل فى البلد ! وأنت تعلمين هذا يا حورية !

أطفأ الصياد العجوز سيجارته فى قاع كوب أمامه :

— لا فائدة ترجى من هذا الحديث .. إنه يسمع دبيب النملة !

تابع يونس حورية بعينين حانيتين وهى تبتعد حاملة الصينية المعدنية الرمادية وعليها الملاعق والأكواب الفارغة :

— ما فى القلب فى القلب ! لم يعد هناك فرق بين الهمس والصراخ .. بين النظرات الصامتة الكسيرة والألسنة الحادة الملتهبة .. فكل منا يعرف نوايا الآخر مهما التحفت بسلام زائف !

واصل العجوز همساته الملحة الحذرة :

— لم يكن المرحوم والدك حكيما عندما تحدى من لا قبل له به ! فليس لمن يقف أمام القطار أن يلومه !

— نحن صنعنا القطار بأيدينا وتركناه ينهب الأرض نهبا ! لم يرتكب أبى جرما يوم أراد أن يستقل بصيده على قارب صغير يملكه ! هل هذه هى مكافأته بعد أن أفنى عمره صيادا أجيرا على مراكب الرعاد ؟!

دوى الاسم فى آذان الجالسين فران سكون ثقيل كالرصاص تحت ضربات الأمواج على الساحل المظلم فى الخارج . نهض العجوز مربتا على كتف يونس :

ـــ كلنا نعمل على مراكبه ! وأنت واحد منا ! لا تحاول أن تناطح الصخر من أجل أمك التى لم يعد لها أحد غيرك فى هذه الدنيا !

ثم نظر العجوز إلى الجالسين ملوحا بيده :

ـــ سلامه عليكم !

وغادر المقهى فى عباءته السوداء الفضفاضة تاركا يونس خلفه وهو يهز ساقه فى عصبية بالغة ! تسلل الصيادون واحدا فى أعقاب الآخر وهم يلقون بالتحية على يونس الذى سرت داخله وحدة قاتلة لم تخفف منها سوى حورية التى انكبت على الموائد تمسحها بقطعة من الصوف الأسود المبتل وهى تبادله النظرات الحانية بين الحين والآخر ! هرعت إلى مائدة تنظفها بنفس الابتسامة الوادعة ووميض النظرة الكسيرة :

ـــ كفانا ما جرى لنا منه ! لم أتصور أن أعمل يوما خادمة ومغنية فى مقهى !! لكن ما العمل ؟! لم يعد لى أب أو أخ يحمينى من تقلبات الزمن ومن العيون النهمة التى تفترسنى كل ليلة ومن إهانات السخفاء مـن أمثـال مرسى !!

فاض وجهه بينابيع التأثر الدافق وقد خيل له أنه لمح شبحا فى الظلام خلف غبش النافذة الصدئة :

ـــ وأنا ؟! أين ذهبت ؟! إننى لم أمت بعد !!

شهقت وهى تدق على صدرها الذى ارتج تحت كفها :

ـــ بعد الشر عنك يا سى يونس ! لكن أحدا لا يفهم معنى صداقة بريئة نقية بين شاب وشابة !

نهض يونس باسما وهو يحتويها بعينيه :

— ومن قال إن الأمر سيظل صداقة ؟! سنتزوج بإذن الله بعد الطلعة القادمة !

— إذا كنت تريد الزواج منى لأن أبى راح مع أبيك فى نفس القارب .. فأنا أرفض هذا الزواج !

كم أحب كبرياءها فى وميض عينيها السوداوين الواسعتين العميقتين كقاع البئر :

— تعلمين جيدا أننى أحبك منذ سنوات !!

— وماذا عن ثرثرة العجائز وأكاذيب الشبان التى تحاول تشويه صورتى ؟! وكأن المصيبة التى حلت بى لم تكن كافية ؟!

ربت يونس على كتفها وقد خيل له أنه لمح شبحا خلف غبش النافذة الصدئة :

— إننى أعرفك مثل كفى ! أما عن كلام الناس .. فلنتركهم يموتوا بغيظهم !

غمرت وجهها ابتسامة حبيبة داعبت شفتيها المكتنزتين الغليظتين الداكنتين ، وأنفها المشرئب إلى أعلى فى شموخ بديع ، وعنقها الطويل كأنها تمثال لفاتنة فرعونية دبت فيه الحياة ! همست بصوت بحه التأثر :

— كثيرا ما قال لى أبى : إن الله لا ينسى أحدا !

— لو كان للرجال شيء من هذا الإيمان .. لما تركوا الرعاد يتلاعب بأقدارهم بهذا الشكل !

— إنهم يخافون علينا من بطشه ! وكفانا ما جرى لنا !

— إلى متى ؟!

ـــ إلى أن يفرجها الله !

ـــ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

بدا عليها وكأنها تبحث عن إجابة مناسبة لكنها قالت فجأة :

ـــ الوقت متأخر .. والظلام ثقيل فى الخارج !

نهض ليساعدها فى حمل بعض الأكواب فى حين حملت نارجيلة بيسراها وجوزة بيمناها . أسرع القهوجى بحملهما ووضعهما على رف خلف حاجز المائدة الرفيعة المستطيلة التى وضع عليها يونس الصينية والأكواب قائلا لحورية :

ـــ سأقوم بتوصيلك الليلة .. فربما تعرض لك أحد فى هذا الصقيع المظلم !

ـــ لا تخف .. أستطيع أن أحمى نفسى كأى رجل !

ـــ قلبى لن يطاوعنى !

ـــ ربما رآنا أحدهم فيشيع أنك ذهبت معى لقضاء الليلة!

ـــ أخلاقنا فوق مستوى الشبهات !!

ـــ أمرك !

أسرعت لتلف جسدها بالملاءة السوداء فى حين ضم يونس فتحة الجلباب ودس يديه فى جيبه . ألقت بالسلام على عامل المقهى المنهمك فى غسيل الأكواب والصوانى وخرجا إلى الظلام حيث لفح الصقيع وجهيهما . سار يونس إلى جوارها يكاد يلتصق بها وقد اخترق صوته هدير البحر الصاخب :

ـــ لولا أننا نحفظ الطريق عن ظهر قلب لتهنا فى دروب البلد وحواريها !

حتى النجوم لا أثر لها .. اختفت مع القمر !!

ــ المهم نور القلب !

اجتاحته رغبة عارمة لاحتضانها واحتوائها :

ــ حكمتك لا تتأتى إلا للعجائز !!

ــ علمتنى الحياة ما لم أتعلمه فى المدرسة التى لم أكملها !

ــ كم وددت أن أكمل تعليمى ؟! لكن ما باليد حيلة ! فالتعليم رفاهية لا نقدر عليها !

ــ لكنك تقرأ فى وقت فراغك كل ما يصل إلى يدك !

ــ حتى أحصل على نور العقل أيضا !

خاضت أقدامهم فى الكثبان الرملية الصغيرة مع رذاذ داعب وجهيهما ! فاح الجو برائحة نقاء غريب ، وأوشكت الريح أن تطير بملاءة حورية لولا تشبثها بها فى إصرار عنيد زاخر بضحكات متقطعة شاركها فيها يونس ورددها صدى البحر ولطمات أمواجه على وجه الساحل الذى استسلم لها تماما ! شق قبة السماء خط نورانى متعرج فأضاء خطوط الطرقات والبيوت التى نامت فلم يصدر من نوافذها ولو بصيص خافت ! دوى هزيم الرعد الذى يذكر يونس دائما بالمدافع الإنجليزية القديمة فوق التل المطل على البحر وكأنه سمعها يوم أطلقت نيرانها على أسطول الحملة الفرنسية .

حاول يونس طرد الصقيع بحرارة كلماته الدافئة :

ــ وددت لو وضعتك فى عينى وأغلقت جفونى عليك !

ــ غدا تملنى عندما لا ترى عيناك سواى !

ــ لا تقلقى .. سأصبح مدمنا لهذا الملل !

هبطا على سفح ربوة قبعت عند أقدامها البيوت الوادعة المتواضعة الحجرية ذات الطابق الواحد أو الطابقين . سارا فى الزقاق الضيق حتى بلغا مفترق الطرق . توقفت حورية وهى تحاول أن تحمى وجهها من لطمات المطر الثقيل :

ـــ شكرا يا يونس .. البيت على مسافة أمتار ولا داعى لتعبك أكثر من هذا !!

ـــ لن أثقل عليك أكثر من هذا ! أسرعى قبل أن يغرقك المطر !

ـــ تصبح على خير .

مدت يدها المبتلة بالمطر والصقيع فشعر بحرارتها السارية من دمائها الفوارة وعروقها الساخنة :

ـــ وأنت من أهله !

انطلقت كالسهم صوب بيتها . سار يونس فى طريقه لكن قلبه لم يطاوعه . عاد للتوقف ومتابعتها بعينيه لكن الظلام كان قد ابتلعها وتلاشى شبحها تماما . استدار مسرعا محاولا حماية وجهه وعينيه اللتين أصابهما الظلام والمطر بالكلال فغامت الدنيا وامتزج الواقع بالحلم بالكابوس الذى لم يستيقظ منه إلا على صوت صرخة دارت بها الريح الهوجاء وصكت بها أذنه ! لم يحدد مصدرها لكنه وجد نفسه فرسا منطلقا فى حلبة سباق تجاه بيت حورية ! تعثر وسقط فوق نتوء حجرى كاد أن يكسر ساقه لكنه نهض قافزا أسرع من الريح حتى لمح شبحين يتصارعان ، وصرخات حورية المتقطعة اللاهثة :

ـــ ابعد يا مجرم ! سأقتلك !

ثم صرخة من الشبح الذى يحاول الإمساك بتلابيبها :

— يا مسعورة !! يا متوحشة !! أليس لى حظ كالآخرين !

عرف فيه يونس صوت مرسى . أضاء الظلام بشرر الإرادة فأمسكه من قفاه ولكمه فى أنفه لكمة طرحته أرضا على الرمال المعجونة بالشوك والحسك والمطر ! وقفت حورية عند باب بيتها تنتفض بردا وقلقا ورعبا ! نهض مرسى مترنحا فى محاولة لرفس يونس الذى أمسك بقدمه وثناها حتى كاد أن يكسر مفصلها ، ثم دفعه حتى طرحه مرة أخرى ثم استدار صارخا فى حورية :

— ادخلى .. واغلقى بابك حتى الصباح !

نفذت حورية الأمر دون همسة . تماسك مرسى ونهض آيلا للسقوط لكن يونس ظل متحفزا بقبضته فى مواجهة شبحه تحت وابل السيل المنهمر الذى أحال الحفر الرملية إلى بحيرات صغيرة . ومض الخط النورانى المتعرج فى قبة السماء وأعقبه هزيم الرعد كقعقعة المدافع . تحرك مرسى فأوشك يونس على لكمه مرة أخرى مع صيحة مدوية :

— المرة القادمة .. سأقتلك !

وإذ بمرسى يطلق لساقيه العنان ، تسابقان الريح والسيل والبرق والرعد وهو يترنح يمنة ويسرة لكنه تماسك حتى اختفى عند أول منحنى ! ظل يونس واقفا مكانه ينتفض داخله بالغضب المشتعل برغم الصقيع المحيط بجسده . تسلل ضوء خافت من خصاص نافذة حورية التى سمع صوتها خافتا مبحوحا خلفها :

— يونس ! يونس ! يا نار قلبى !

خيل إليه أنها فتحت المزلاج فصاح :

ــ لا تفتحى .. أنا بخير .. لقد فر الكلب بعيدا !

ــ تصبح على خير .. يا .. يا حبيبى !

ــ أروع كلمة سمعتها أذناى .. وأنت من أهله !

انطلق يونس غير مكترث للأوحال الزلقة تحت حذائه الضخم ! أضاء داخله بوميض إرادة من صلب محمى وجمر متألق ، ودوى برنين أجراس صدحت بلحن الوجود : لا تقهقر أمام كل من تسول له نفسه أن ينتهك حرمة الإنسان سواء أكان مرسى أو الرعاد ؟!

(بحر الظلمات)

٢

جلس الرعاد فى شرفة قصره الجاثم على أعلى تل يطل على البحر الذى هدأت أمواجه عند سفحه . أطلق نفسا طويلا صافيا من سيجاره ذى الرائحة النفاذة وربت على كرشه المنتفخ فى رضا عميق متأملا خاتمه الماسى المتألق مع ضوء القرص الأحمر الذى أوشك على الغرق عند خط الأفق الأرجوانى . ملأ رئتيه بالهواء النقى المنعش المبشر ببدايات الربيع ، وجرت أصابعه الغليظة على شاربه الكث وصلعته اللامعة مستمتعا باسترخائه فى مقعده الوثير فى الغرفة الفسيحة المغطاة بأغلى الطنافس وأفخر الرياش المكتظ والذى ضاقت به حتى كادت أن تلفظه !

ما أروع الحياة عندما يكللها النجاح ! كم استمتع باجترار ذكرياته القديمة منذ أن وجد نفسه صبيا بائسا شريدا فى إحدى حلقات السمك الممتدة بطول الساحل ! لا يتذكر له أبا أو أما ! عاش على الهبات العابرة والصدقات المتناثرة التى كان السماكون يلقون بها إليه من حين لآخر ! لم يكن هناك فرق بينه وبين القطط الهائمة الحائمة حول حلقة السمك لعلها تلتقط سمكة صغيرة عفنة أو أحشاء سمكة كبيرة ! تذكر القطة السمينة الناعسة عند قدميه فانحنى مربتا على رأسها وظهرها . تمددت فى سعادة واسترخاء بالغين دون أن تنظر إلى سيدها . فقد طفر الشبع والارتواء من عينيها الناعستين .

سرت ابتسامة هانئة فى عينيه الجاحظتين وأنفه الذى يفترش وجهه محاولا إخفاء تجاعيده ! لا أحد يعرف السر فى امتلاء القصر بهذه الأنواع المتعددة من القطط ! وهو يفضل أن يحتفظ بالسبب لنفسه ! فهذه الحيوانات الرقيقة ، الناعمة ، الشرسة ، الخبيثة ، الذكية ، المتحفزة ، المتنمرة دائما كانت أصدقاءه فى الضراء ، فليس أقل من أن يكون صديقها فى السراء ! بل إن جميع المترددين على القصر يدللونها ويداعبونها إكراما لخاطره بحيث لا يمكن أن يخطر ببالها ما كان يحدث لجداتها فى حلقة السمك القديمة يوم طار رأس إحداها عندما تجرأت على خطف سمكة كبيرة ! بل إن هواية رئيس مجلس المدينة المفضلة عندما يزوره من حين لآخر أن يجلس إليه وعلى حجره إحدى قططه تنام فى استغراق عميق ! حتى المحافظ فى سهراته معه فى القصر أدمن مداعبتها برقة حانية متمنيا أن تعيش كل قطط المدينة على هذا المستوى الرفيع الراقى !

ما أمتع تأمل المسيرة التى امتدت به من حلقة السمك القديمة حتى هذا القصر العالى ؟! من النوم على رصيف الحلقة ثم داخلها على القشور وبين الأحواض الصاج النتنة إلى التمرغ فى الرياش الناعم الوثير وفى أحضانه فاتنة يسيل لها لعاب المتفرجين بمجرد ظهورها على الشاشة ، سواء أكانت فى لباس البحر الذى يكشف أكثر مما يستر أو فى ثوب السهرة الذى تداعب حوافيه الذهبية الطنافس التى تغوص فيها قدماها الوردتيان المرمريتان !

لقد علمته الحياة ما لا يمكن أن يتعلمه الآخرون فى المدارس والجامعات ! علمته أن لكل إنسان مفتاحا يؤدى إلى أعمق أعماقه أو بمعنى أصح ثغرة أو ثغرات ضعف يسهل التسلل منها ثم الإمساك بقياده ليوجهه كما يشاء دون

أن يدرى ، وذلك مهما بدا هذا الإنسان قلعة حصينة شامخة يصعب مجرد الدق على بوابتها الحديدية !

فى تلك الأيام البعيدة لم يكن يملك ما يخاف ضياعه ، وتلك كانت قوة فى حد ذاتها ، أما الآن فهو يملك الدنيا كلها ! تعلم أن الإنسان إذا لم يجد ما يبيعه فلا بد أن يبيع نفسه ! فلا بد فى هذه الدنيا من عمليات البيع والشراء ! لكن الحيل أعيته حتى اكتشف ذات يوم أن لديه ما يبيعه أيضا ولن يندم عليه ! فقد كان الندم رفاهية لا يقدر عليها ! كان فى صباه حسن الطلعة وسيم المحيا لدرجة أن أحد السماكين سخر به ذات يوم عندما قال له : لولا أنفك الذى يفترش وجهك لكنت فاتنة الحلقة كلها ! وذلك برغم وجهه الذى لم يكن يغسله إلا كل عدة أيام ، وقدميه الحافيتين ، وجلبابه الخشبى بفعل مياه غسيل السمك وقشوره المتراكمة عليه !

كانت جملة السماك الزاخرة بالسخرية والاحتقار المفتاح السحرى الذى اكتشف به نفسه والآخرين ! أدرك معنى نظرات صاحب الحلقة عندما كان يفتحها فى الصباح ويقف متأملا نصفه الأسفل العارى بفعل الحرارة الخانقة والرطوبة العفنة ! وأحيانا كان يلكزه فى فخذه بحجة إيقاظه لتنظيف الأرض وغسل الأحواض ! كان ينهض منتفضا كالمعتوه لينفذ الأوامر دون أن ينبس ببنت شفة ، وسرعان ما كانت إمارات الخيبة والإحباط تحط على وجه صاحب الحلقة لعجز الصبى عن تلقى الرسالة ! وأحيانا كان توتره العصبى يدفعه إلى ضربه بعنف وحشى دون سبب يذكر !

لكن الصبى تلقى الرسالة واستوعبها أخيرا ! فى ذلك الصباح المبكر

البعيد لكزه المعلم فظل يتقلب مدعيا النوم العميق ، وتاركا الفرصة لنظراته الثاقبة كى تصول وتجول ، ويديه اللتين نسيتا الصفعات واللطمات واللكمات لتفتحا عهد اللمسات التى تفيض رقة وحنانا ! استدار الصبى ليواجهه بعينين نصف مفتوحتين ، فجفل المعلم متراجعا إلى الخلف مدعيا إيقاظه المعتاد ، لكن الصبى واصل ابتسامته الناعمة المسترخية التى انتقلت عدواها إلى وجه المعلم الذى أضاء بحنو بالغ لم ير الصبى مثله من قبل !

منذ ذلك اليوم لاحظ جميع العاملين فى الحلقة الجلباب الجديد النظيف الذى ارتداه الصبى مع الحذاء ذى العنق الطويل ، والأريكة الخشبية التى أصبحت فراشا له فى مكتب المعلم الذى لم يعد قادرا على الاستغناء عنه أو حتى الابتعاد !! وأصبحت كل طلباته مجابة على العين والرأس ، بل أصبح الواسطة التى لا تخيب لدى المعلم وكل العاملين فى الحلقة والذين لمح فى عيونهم بعض النظرات ذات المعانى الصامتة لكنها لم تتحول أبدا إلى غمز أو لمز !! كان محاطا بالاحترام والتقدير ، وتحول من « الواد عوضين ابن كذا وكذا إلى سى عوضين » وكأنه عثر على خاتم سليمان الذى غير الناس من حال إلى حال فى غمضة عين !

كان عوضين عاشقا للبحر الذى طالما حلم به ! توسل إلى المعلم أن يتوسط له كى يخرج فى رحلات الصيد لكنه كان الرجاء الوحيد الذى رفضه له ، فلم يكن قادرا على بعده ! وفى مقابل هذا قرر عوضين أن يصبح سيد الحلقة الفعلى ! أصبح خبيرا بكل عمليات إحضار السمك من سفن الصيد وتخزينه فى الثلاجات وتسويقه وتوزيعه ، وفتح لنفسه حسابا فى البنك حتى لا تفاجئه الدنيا بتكشيرة جديدة عن أنيابها ! وحرص على زيادة

مدخراته سواء من العمولات التى يقتنصها لنفسه فى كل خطوة أو من الهبات والمكافآت المجزية التى يمنحها له المعلم الذى طعن مع الأيام فى السن وازداد عرفانه بجميل عوضين الذى لم يهجره بل ظل وفيا له إلى أن مات ، وأوشكت الحلقة على أن تغلق أبوابها بعد رحيله لولا أن أسرع عوضين إلى شرائها ، وإعادتها إلى سابق مجدها أيام شباب المعلم وفتوته !

أصبح اسم عوضين أحد ملوك السمك فى البلد ! لم ينس الدرس الذى تعلمه فى صباه ، وشرع فى اكتشاف ثغرات ضعف جديدة فى كل من يتعامل معه ! اقتحم قلاعهم بسلاح الخمر أحيانا ، وبسلاح المخدر أحيانا أخرى ، وبسلاح المرأة أحيانا ثالثة ، وبسلاح المقامرة أحيانا رابعة ، أو بجميع هذه الأسلحة فى وقت واحد إذا كانت القلعة حصينة ! ارتبط به الجميع وداروا فى فلكه . وأصبحت الحلقة ثلاث ثم أربع ثم خمس حلقات ثم شرع فى شراء مراكب للصيد لتكون نواة لأسطول لم تشهده السواحل من قبل !

أشبع عشقه للبحر بالخروج فى معظم رحلات الصيد حتى ألم بكل أسرار الصيد وتفاصيله ، ابتداء من عملية التظفير التى تلقى فيها البدرة التى تجذب الأسماك إليها فى حالة الصيد بالسنارة ، ومزج البدرة بكنسة مضارب الأرز ومطاحن الغلال ، والطعوم الطبيعية مثل الديدان والحشرات كالجرادة والخنفساء والعنكبوت وصغار السمك والجمبرى والعنب الأسود والكريز والبرقوق الأسمر والشعير والقمح والفطائر ؛ إلى الصيد بشعر البروتشيدا الشفاف بالنهار أو الشعر الأسبانى بالليل أو الوتر النايلون ، إلى الصيد باللوتسو أو الفلايك الكبيرة ذات الشراع باستخدام الغزولات الكبيرة

وعلى مسافات بعيدة جدا من الشاطىء ، إلى الصيد بالمراكب الشراعية الضخمة التى تستخدم أكثر من شراع وتبحر إلى المياه العميقة معتمدة على الشباك العائمة التى تسحب بأيدى رجالها وتسمى شباكا خيشومية ، إلى الصيد بالمراكب ذات المحركات التى تستخدم فى الصيد شباك الجر فى المياه العميقة والتى تسحب وترفع بأوناش !

كل هذا وغيره كثير ، عرفه عوضين حق المعرفة بالإضافة إلى خبرته بأساليب صيد البشر ! فكما أن لكل إنسان ثمنا : رشوة أو هدية أو هبة أو زجاجة خمر أو قطعة مخدر أو امرأة لعوب ، فإن لكل نوع من الأسماك طريقة لصيده ، وشبكة توقعه حيثما وجد ! فهناك غزل المياس والوحش والمرجان والغزيلة والوقار واللوت والقاروص والشرغوش والعصفور ، والكنار الكبير والصغير ، والسردين ، وغزل القفشة ، واللبوات ، والطوانس ، وخداوى الطغيان ، والطاقم أو الناعمة ، وغزل المحير ، والقشور ، والنشة ، والدورة ، والقانون ، والقرموط أو الجباص أو الحطاط !

ولذلك اعتاد عوضين ألا يفلت من شباكه أحد ! ولكى يحيط نفسه بهالة من الهيبة والرهبة أطلق على نفسه لقب الرعاد ، تلك السمكة ذات الثلاثة أزواج من الشوارب ، والتى تتوسط عيناها جانبى الرأس ، ولونها رمادى ضارب إلى الزرقة ، وبطنها أبيض . وأحيانا تكون منقطة أو مرقشة بالأبيض أو بالأسود ، وبحافة زعنفتها الذيلية لون أحمر أو برتقالى ، والزعنفتان الكتفيتان والبطنية لونهما أصفر أو ضارب للحمرة ، وقد يكون أحمر قانيا . وهى الألوان التى يعشقها عوضين : حلته رمادية وقميصه

أبيض وأحيانا منقط ، ورباط عنقه أحمر أو أصفر فى لون المنديل المتدلى من جيبه ! لكن ما يهم عوضين فى سمكة الرعاد عضوها الكهربى الذى يمتد بطول جسمها ، وهو بمثابة سلاحها فى الدفاع عن نفسها ولمهاجمة عدوها ، وهى تختلف عن باق الأسماك الكهربية فى أن التيار يسرى فى جسمها من الرأس إلى الذيل .

ادعى عوضين إن أسرة الرعاد اندثرت عند اشتراكها فى مقاومة الاحتلال البريطانى للأسكندرية ، ولم يتبق منها سوى أبيه الذى لا يتذكره على وجه التحديد لوفاته وهو لا يزال طفلا ! وقد صدقه البعض أو تظاهر الجميع بتصديقه ! كيف لا وهو الذى اشترى استراحة القائد الإنجليزى المهجورة والمطلة على الساحل ، وأحالها إلى قصر وثير منيف يجلس فيه الآن ليطل على البحر ، ويجتر ذكرياته الحبيبة ، وينتظر ضيوف حفله الكبير الذى سيعقده فى سهرة الليلة تكريما للمحافظ الجديد ، والذى سيحضره عيون البلد وأعيانه !

هل كان يحلم فى يوم من الأيام بأن يحل محل القائد الإنجليزى ممثل الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ؟! هنيئا للبلد ولأبنائها ، فقد استولى على القصر ابن لها مخلص وفى يعمل ليل نهار من أجل صالحهم ، ويعيشون جميعا فى خيره ، وإن كان بعضهم جاحدا لجميله ، لكنهم أفراد يعدون على أصابع اليد الواحدة ولا خوف منهم ، ومصيرهم الاعتراف بالخير الذى يتمرغون فيه ولا يعرفون قيمته ! فعين الإنسان فارغة ولا يملأها سوى التراب !

دخل عويس مساعد الرعاد يدق الأرض بساقه الخشبية ! صخرى

الملامح ، كث الشارب واللحية ، ضخم البنيان ، عينه اليسرى الزجاجية توحى بجبروت. لا أحد يعرف كل خباياه ، ولا يتناغم مع الحلة الزرقاء الأنيقة التى يرتديها خصيصا لاستقبال ضيوف الحفل . فهو لا يرتدى عادة سوى ملابس الصيادين على المركب : العباءة وتحتها السروال المنتفخ والصديرية ذات القماش المقلم اللامع ! وقف أمام سيده الذى سأله دون أن يحول عينيه عن أمواج البحر المتمسحة بسفح التل وقدمى القصر :

ــ هل جاء الولد ؟!

ــ ذهب الرجال لإحضاره ولم يصلوا بعد !

ــ لعله هرب !

رمشت عين عويس الزجاجية وحك لحيته :

ــ لو هرب إلى سابع أرض .. سنحضره لسعادتك !

مال الرعاد على القطة الرمادية السمينة الناعسة ذات الشعر الناعم الطويل عند قدميه ورفعها ليضعها فى حجره ويسلى نفسه بمسح شعرها الذى يعشق ملمسه . تمددت القطة على ساقيه المكتنزتين وشرعت فى كركرة منسجمة دون أن تفتح عينيها . قال سيدها :

ــ وإن كنت أفضل أن يختفى بلا عودة فى ثانى أرض فقط ! فليس عندى وقت لأمثال هذه الصراصير !

ــ كما قلت لسعادتك .. مقامك العالى ووقتك الثمين لا يسمحان بلقاء هذا الصرصور !! كيف يحظى بشرف هذا اللقاء بهذه البساطة ؟!

ــ هناك أشياء أريد التأكد منها بنفسى !!

ــ سعادتك أدرى وأعلم !

— هذا الولد جرىء جرأة غريبة .. ولسانه أطول من اللازم !

— نقطعه !

— قطعه قد يحرك ألسنة أخرى ! الغريب أن هذا الولد لا يملك شيئا لكنه يتصرف كما لو كان يملك الدنيا بأسرها !

— أبوه كان مصابا بنفس الغرور المجنون ! ودفع حياته ثمنا له ! والآن يلمح أننا الذين أغرقنا قاربه الحقير !

— لا يهمني ما يقوله .. فلا أحد يصدقه ! كل ما يهمني أن أعرف من أين حصل على هذه الجرأة والكبرياء وهو لا يساوى شيئا فى سوق البشر !

— دماغه كالحجر الصوان ! لا حل سوى كسره ليعرف أن الله حق !

— يؤكد فى كل جلساته أنه ليس على استعداد لأى نوع من التنازلات ! يتنازل عن أى شيء ؟! لا أعرف !!

— وقت سعادتك أثمن من أن يضيع فى تفسير تخاريف معتوه !

سمعا وقع أقدام خارج الغرفة فاستدارا . قال عويس :

— وصل !

تقدم عويس تجاه الباب قائلا بلهجة آمرة :

— ادخل !

دخل يونس بجلبابه الأسود وطاقيته البيضاء معتد الخطوة ، شامخ الرأس حتى وقف أمام الرعاد :

— سلامه عليكم !

مد إليه الرعاد يده فسلم عليه دون أن ينحنى ! تميز عويس غيظا ورمشت عينه الزجاجية عندما أمره الرعاد بتركهما ! خرج وهو يدق

البساط الأحمر بساقه الخشبية دقات عبرت عما يجتاح وجدانه المنصهر !
طلب الرعاد من يونس أن يجلس على مقعد مجاور فجلس دون تردد .
تفحصه الرعاد بعيني الصقر لحظات لكن يونس تشاغل بمتابعة بقايا القرص الأحمر الذى غرق عند خط الأفق الأرجوانى الباهت ! فجأة خرج صوته كالهدير المكتوم :

ــ أنت متهم يا يونس بالاعتداء على زملائك والتهديد بقتلهم !

لم يهتز يونس وإنما أجاب بابتسامة لم يخف سخريتها :

ــ ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى !

ــ لم يشتك أحد ! لا بد أن تعرف أن كل حركاتكم وسكناتكم معلومة لدى أول بأول !

ــ وأنا لم أفعل شيئا سوى الدفاع عن الشرف !

سرت الكلمة داخل الرعاد كسيخ محمى ! هذا الولد يتصرف كما لو كان حامى حمى الشرف ! من أين حصل على هذه السلطة ؟!

ــ ليس من حقك أن تمنع أى شاب يريد التحدث إلى حورية !

ــ لكن من حقى أن أوقف من يحاول الاعتداء على شرفها !

ــ ومن منحك هذا الحق ؟!

ــ هذا الحق لا يمنح ! فلقد خلقه الله مع الإنسان ! كيف لرجل أن يرى مثل هذه السفالة ولا يحرك ساكنا ؟!

أشاح الرعاد بوجهه بعيدا ووضع القطة عند قدميه مرة أخرى :

ــ أكثر المتشدقين بالمثل العليا أبعد الناس عنها !

ــ لم أتشدق بشىء ! وإنما نفذت فى الحال ما أومن به !

— هل كنت تدافع عن الشرف أم عن حورية ؟!

— وما الفرق ؟!

— لا يعرض الإنسان حياته للخطر إلا إذا كان وراءه حافز شخصى قوى !!

— وما رأيك فى الذين يستشهدون فى سبيل أوطانهم ؟!

— لو كانت الشهادة رغبة شخصية ملحة فلماذا جعلوا التجنيد إجباريا ؟!

— ليس الناس سواسية .. ولا بد من نظام يحكمهم !

استدار الرعاد ليحملق فى وجهه بوميض عينين جاحظتين :

— ألم أقل لك أنك تتشدق بمبادئ لا تنفذها ؟! لماذا تؤلب الشباب على النظام الذى يحكمكم ؟!

— إذا فنحن مجندون إجباريا للعمل على مراكبك ؟!

— من لا يعجبه العمل معى فلن أقيده بسلسلة .. مع السلامة !! وأنت خير من يعلم أننى لم أقف فى طريق أبيك يوم أراد الاستقلال بصيده !

نظر إليه متأملا متفحصا كأنه يقرأ ما يدور فى رأسه فتجنب يونس لأول مرة سهامه الثاقبة النافذة . أضاف الرعاد :

— كما أننى لن أتسامح معك بعد ذلك إذا حاولت مجرد التلميح بأن هناك جريمة وراء غرق أبيك بقاربه !

غمرت أمواج التحدى والمواجهة وجدان يونس فصمد لها :

— لم أتهم أحدا .. كل ما فى الأمر أننى كنت أتمنى عودة أحدهم سالما حتى نعرف كيف لقوا مصيرهم !!

ـــ وما الفرق ؟! ما وقع قد وقع !! هل ترغب فى تحدى القضاء والقدر ؟!

ـــ أنا مجرد شاب عادى مكافح يؤدى واجبه ويتمنى الحصول على حقه !

دق الرعاد بيده على مسند المقعد الذهبى الوثير :

ـــ الزم حدودك يا ولد ! هل بلغت بك الجرأة أن تقول فى وجهى ما تشيعه فى غيبتى !! من تظن نفسك ؟! من أين أتيت بهذه السلطة والزعامة حتى تتكلم عن الحقوق المفقودة ؟! تعيشون جميعا فى خيرى ثم تعضون يدى وتنهشون ظهرى ؟! لولا أسطولى لتفرقتم فى قوارب متهالكة مثل ذلك الذى أودى بأبيك إلى قاع البحر !! أهذا هو العرفان بالجميل ؟! قل لأصدقائك الذين تتزعمهم أننى قادر على سحقهم فى لحظة لولا أبوتى وحنوى على الجميع !! فهم أقلية لا وزن لها !! فالأغلبية العظمى تدرك الفرق بين العمل عندى والعمل بعيدا عنى !

لم يكن يونس يدرك أنه نجح فى استفزاز الرعاد إلى هذا الحد ! قرر أن يتقمص دور الزعيم الذى منحه الرعاد إياه دون أن يدرى . قال بهدوء قاتل :

ـــ نحن لا نعض اليد التى تمتد إلينا !

صاح الرعاد والرذاذ الغائر يتناثر من شفتيه السميكتين :

ـــ نحن ؟! تكلم عن نفسك فقط !

ضاعف من هدوئه ذى الابتسامة القاتلة :

ـــ لسعادتك الحق كل الحق فى هذا .. فأنا لا أملك سوى نفسى !

ظن الرعاد أنه تراجع عن عناده عند ذكره لسعادته لأول مرة ، فخفض من صوته ، وهدأ من سرعته الصاخبة مع سحابة صافية من سيجاره :

ــ كان يمكن أن أتخذ إجراءاتى دون تحذير !! لكن الجميع أبنائى !! حتى الجاحدين الحاقدين منهم !! وأعتقد أنك من الكياسة بحيث تفهم ما أعنيه !!

ــ أعد سعادتك أننى لن أفعل يوما ما يتنافى مع القانون !!

ــ أو معى ؟!

ــ القانون لا يتعارض مع كل المؤمنين به !!

استدار ليواجهه ولكن بابتسامة خبيثة هذه المرة .

ــ من أين لك بكل هذه الحجج والردود السريعة وأنت فى هذه السن ؟!

ــ من الكتب المستعملة التى يبيعها عم عبد العليم !

ــ ذلك العجوز الذى يفترش سور المدرسة الابتدائية ورصيفها ؟!

ــ نعم !

ــ لكن لا بد أن تعرف أن الكتب شىء والحياة شىء آخر تماما !

ــ اعتبرنى مدمنا للكتب مثل إدمان سعادتك للسيجار !

تذكر الرعاد أن سيجاره انطفأ فأعاد إشعاله بولاعته الذهبية وهو يبحث عن رد يفحم به حجة يونس وعناده ، لكنه تذكر شيئا فجأة ، فأمسك بتلابيبه حتى لا يتوه عنه مرة أخرى :

ــ هل تحب حورية ؟!

ذهل يونس للانتقالة المفاجئة فى الحديث لكنه لم يسمح لأفكاره

بالتشتت والشرود . صمت لحظة متأملا القطة الرمادية التى يداعبها الرعاد بحذائه الأسود اللامع ثم تساءل فى هدوء مريب :

— وهل الحب ممنوع ؟!

— ليس ممنوعا ! ولكن حب بدون زواج لا يتمشى مع ذوى المبادئ !

— سأتزوج من حورية بمجرد رجوعى من البحر فى المرة القادمة !

— خير البر عاجله !

— ليس قبل استلام المكافأة والحوافز !

— لا تحمل هما ! سأقيم لك زفافا لا ينسى ! فأنت مهما كنت ابنى !

— هذا شرف كبير لا أحتمله ! فأنا أحب أن يكون كل إنفاق من عرق جبينى !

— هل أنت خائف من كلام الناس ؟! كلهم فى جيبى !!

أخرج الرعاد الولاعة الذهبية من جيبه وأعاد إشعال سيجاره وأطلق نفسا رماديا شفافا فى انتظار رد يونس :

— لا أحب أن أشذ عن أولاد بلدى .. فسعادتك لن تقيم حفلا لكل شاب نوى على الزواج !!

— أهكذا تصدنى وترفض هديتى ؟!

— لا سمح الله ! لكننى لا أقبل إلا ما أستحقه فعلا !

علا صوت الرعاد فجأة وهو يضع سيجاره فى المنفضة المرمرية أمامه دون أن ينظر إلى يونس :

— ألم تقل يا يونس فى المقهى إن الصيادين لا يحصلون منى على الأجور والمكافآت والحوافز التى يستحقونها ! وإننى أستغلهم أسوأ استغلال

وأعرض حياتهم للخطر وصحتهم للضياع فى مراكب مستهلكة قديمة لأنعم أنا فى النهاية بنعيم الرفاهيةالذى أتقلب فيه ؟!

أسقط فى يد يونس الذى أدرك حجم الداهية الذى يواجهه ! لم يسعفه تأمل سمرة الغروب الرمادى حتى يجمع شتات أفكاره بحثا عن الجواب المناسب :

ـــ ليس كل ما ينقل لسعادتك صحيحا ! وإلا كنت قد قبلت كرم سعادتك بتوفير تكاليف الزفاف !!

ـــ سواء هذا أو ذاك فإن من ينطح الصخر مسئول عن رأسه !

لم يتحرك يونس فى جلسته وإنما حرص على رسم ابتسامة على شفتيه وعينيه ، لكن الرعاد لم يسترح لها :

ـــ وأنا لست بهذا الغباء الذى يحاول البعض إبلاغه لسعادتك !

ـــ إذا .. احرص دائما على ذكائك ! فأنا لا أحب سوى الأذكياء !

ـــ أرجو أن أكون دائما عند حسن ظن سعادتك !

ـــ ستكون إذا أثبت أنك ابن بار .. فأنا لم أتزوج وليس لى ابن .. وأنت فقدت أباك .. رحمه الله !

تهدج صوت الرعاد الذى بدا حزنه على الراحل أعمق من حزن ابنه عليه ! لم يجد يونس كلمات تملأ فراغ الصمت المشحون بلطمات الأمواج عند سفح التل الصخرى فظن الرعاد أنه نجح فى إثارة أشجانه التى يشاركه إياها ، فقال والتأثر لا يزال يغلف نبراته التى أصبحت هامسة مبحوحة :

ـــ على كل حال .. لقد قررت أن أصرف منحة زواج لك ولكل شاب نوى على الزواج .. حتى تبدأ حياتك بداية صحيحة !

ـــ لا حرمنا الله منك !

نهض يونس لكن الرعاد سرعان ما قال متسائلا :

ـــ من قال لك إن المقابلة انتهت !

ـــ لا أريد أن أثقل على سعادتك أكثر من هذا .. فالحفل أوشك على أن يبدأ .. وضيوف سعادتك أكبر من أن تتركهم ينتظرون !

ابتسم الرعاد لهذا الشاب العجيب ابتسامة كشفت عن أسنانه وأنيابه الصفراء التى غلفْ بعضها بالذهب ثم قال :

ـــ وهو كذلك ! لحظة واحدة !

وأخرج من جيب حلته الداخلى دفتر شيكاته وحرر شيكا أمسكه يونس بيد مرتعشة وصوت لم ينج من الاهتزاز :

ـــ لكن هذا مبلغ أكبر من اللازم ؟!

ـــ لا أضن بأى شيء على أبنائى البررة المطيعين !

كان يونس على وشك أن يرد الشيك هربا من الفخ الذى أوشك على الوقوع فيه ، لكنه فضّل الهروب بجلده من هذا الأخطبوط ليسترد أنفاسه ، ويجمع شتات أفكاره بعد أن أحس لأول مرة أنه لا يعرف ماذا يفعل !!

وضع الشيك فى جيبه وانحنى مسلما على يده فأضاف الأخطبوط :

ـــ ألن تدعونى لحفل الزفاف ؟!

ـــ إنه شرف كبير يا سعادة البك .. لكن المكان لا يليق بسعادتك !

ـــ مكانى بين أبنائى .. وليس لى مكان آخر !!

ـــ أمرك ! وإن كان هذا الشرف لم ينله شاب من قبل ؟!

ـــ لعله فاتحة خير على الجميع !

(بحر الظلمات)

— شكرا .. سلامه عليكم !

انحنى يونس واستدار هربا حتى كاد أن ينزلق على البساط الأحمر الناعم ويصطدم رأسه بسمكة الرعاد المحنطة المعلقة على الجدار المغطى بالورق الذهبى ! تذكر قدرة هذه السمكة على إحداث هزات كهربية عددها مئة وخمسون هزة فى الثانية عند الدفاع عن نفسها أو صعق فريستها ، لكنه تذكر أيضا أنها تحتاج إلى فترة راحة لتتغذى وتجدد قوتها عندما تفرغ شحنتها الكهربية فى ضحيتها !

وسع يونس من خطاه حتى ابتلعه الباب الزجاجى الداكن ونظرات الرعاد تتتبعه فى دهشة كامنة : من أين لهذا الشاب الفقير المعدم كل هذا الإحساس بالكبرياء والكرامة ؟! هل هذا هو السر فى إعجاب معظم شباب البلد به ؟! لا يعرف لماذا يذكره دائما بصباه وشبابه ؟! هل كان من الممكن أن يصل إلى ما وصل إليه لو رفض الرضوخ لنزوات صاحب الحلقة الكهل ؟! سؤال لن يجد الإجابة عليه إلا إذا نجح فى إجبار يونس على الرضوخ له بطريقة أو بأخرى !! إنه لن يطلب منه بالطبع ما طلبه منه صاحب الحلقة منذ أربعين عاما ، فكل ما يريده أن يصبح واحدا من أفراد القطيع ، لا أكثر ولا أقل !! وسوف ينجح فى مهمته كما نجح من قبل فى مهام كانت فى عداد المستحيلة !!

دخل عويس بعد دقات سريعة على زجاج الباب الداكن ثم منحنيا لاهثا :

— سعادة الباشا المحافظ وصل !

نهض الرعاد منتفضا :

ـــ ولماذا لم تبلغنى حتى أكون فى استقباله ؟!

ـــ أقصد أن أفراد الأمن أبلغونا باللاسلكى أنه على وشك !

ـــ وهو كذلك .. هيا بنا !

سار الرعاد وخلفه عويس بدقات ساقه الخشبية منصتا لسؤاله المفاجئ :

ـــ هل تعرف عبد العليم بائع الكتب المستعملة الذى يفترش سور المدرسة الابتدائية ورصيفها ؟!

ـــ آه .. هذا العجوز ؟! أعرفه !! ما حكايته ؟!

ـــ أريدك أن تشترى كل كتبه بالثمن الذى يحدده ثم تمزقها أو تحرقها !! ثم تشترى له كشكا لبيع الصحف القومية والحلوى والتسالى والسجائر والغازوزة فقط !

نظر عويس إلى الرعاد فى دهشة بلهاء متسائلة ، فعاجله سيده بكلمات كطلقات الرصاص :

ـــ لا تنظر هكذا كالأبله .. نفذ ما سمعته !

ـــ تمام يا سعادة البك .. غدا كله تمام !

هبط الرعاد على السلم الحلزونى المغطى بالبساط الأحمر والذى يؤدى بعد خطوات إلى مدخل القصر المفتوح على مصراعيه وقد تناثر حوله الحراس ذوو الأجهزة اللاسلكية الصغيرة ! وبمجرد وقوف الرعاد على السلم الرخامى الذى تدثر بنفس البساط الأحمر ، هلت العربة السوداء الفارهة لتقف أمام المدخل فى المكان الذى حجز لها خصيصا فى طابور السيارات الملاصق للطوار بطول واجهة القصر ! وفى لمح البصر فتح الحراس باب العربة ليهبط الضيف الكبير وعيناه على الواجهة الرخامية المرمرية المتألقة بالأنوار ، والمرصعة بالمصابيح الملونة ، وليجد نفسه بين أحضان الرعاد مرحبا مباركا مهنئا !

٣

أقلعت المراكب مع أول خيوط الفجر الرمادية لتبتعد عن الحافة الرملية التى ظلت تضيق وتهبط حتى اختفت أخيرا تحت الزرقة الداكنة لمستوى البحر ، ولم يبق فى الأفق سوى هالة الصحراء المتربة . كانت طيور النورس تحيط بالمراكب لكنها سرعان ما غادرتها ، طائرا تلو الآخر وهى تطلق صياحها المتقطع الحزين مع بزوغ نور الفجر مترددا خجلا . لم يكن هناك فى البحر الهادئ سوى قطعة من الخشب تطفو على غير هدى مع الريح المواتية فى رزانة زاخرة بالندى والرطوبة والضباب الذى يتراجع عن وجوه الصيادين الصارمة المتغضنة المثبتة على المجهول الذى يتأرجح مع تهادى المراكب وأزيز محركاتها التى اشتركت مع حفيف الأمواج فى ملأ فراغ السكون .

قبع يونس على لوح خشبى معلق فى جدار المركب وقد ارتدى ملابس العمل : الصوف من الرأس إلى القدمين ، الجورب والسروال والصديرى والحذاء المطاط ذو العنق الطويل ، أما على الرأس فتربعت الطاقية الصوفية التى تطل على جبهته فى حياء متردد . لم يفتح يونس فمه بكلمة مما أثار دهشة عم عبد الرحمن القابع إلى جواره ، والذى اعتاد الثرثرة معه قتلا للملل والرتابة حتى موقع الصيد . سأله هامسا مع هبات الريح المتتابعة :

ــ ألم تلحظ إصرار عويس على أن تكون أنت ومرسى على نفس المركب برغم وجود مراكب خمسة ؟!

كان يونس فاقدا لشهوة الثرثرة فقال متثاقلا :

ــ يريد جنازة ليشبع فيها لطما !

ــ وماذا عن مرسى ؟!

ــ عند الركوب بدت عيناه وكأنه على وشك أن يقول لى شيئا .. وعندما تقدمت منه أشاح بوجهه وسرعان ما ابتعد !

ــ أعتقد أنه يخافك الآن بعد أن قرر الرعاد أن يحضر حفل زفافك !!

ــ هذا هو خوفى أنا ؟! ألم تر نظرات الصيادين وهمساتهم المتقطعة كلما دخلت المقهى أو مررت بهم فى الطرقات ؟!

ــ إنهم يقابلونك بكل ترحاب حار !

ــ هذا هو ما يهدف إليه الرعاد تماما !! أن يحل الخوف والرهبة محل الحب والتقدير فتتقطع كل الصلات !! الواحدة بعد الأخرى .. وكأننى أصبحت أحد رجاله !

ــ ولماذا لا تستفيد من هذه العلاقة لصالحنا جميعا ؟!

ــ الحدأة لا تلقى كتاكيت يا عم عبد الرحمن !

ران السكون المشحون بأزيز المحرك ولطمات الأمواج على جوانب المركب وهى تتهادى صعودا وهبوطا مقتربة من أنوار الفجر التى سادت خط الأفق حيث أضاءت المياه بلون السماء الذى يمزج الزرقة بالخضرة الشفافة النقية . اهتزت المركب بعنف مصحوب برذاذ لطم وجهيهما ، فقال يونس هامسا وهو يقبض على اللوح الخشبى حتى لا يقع :

ــ الخوف كل الخوف أن يحاول مرسى الانتقام منى باستغلال حضور الرعاد حفل الزفاف ! وربما كان متفقا معه على خطة معينة !

— يجوز .. فلم يكن يخطر ببال أحد منا أن يذهب إليه ليشكوك !

— والعمل ؟! يا عم عبد الرحمن !!

— مهما فعل مرسى .. فهو واحد منا .. ويجب أن نفوت على الرعاد فرصة دق إسفين بيننا !

كان يونس على وشك أن يجيب الشيخ الوقور الجالس إلى جواره لولا دقات خشبية على أرض السفينة عرف منها خطوة عويس الذى سار فى عنجهية وأنفة فى جولة تفتيشية على الصيادين والملاحين . وقف أمامهما وقد أمسك بعصا خشبية غليظة فانتفض عبد الرحمن واقفا فى خشية وخشوع ! نظر إلى يونس والشرر يتطاير من عينه اليمنى السليمة فى حين ومضت العين الزجاجية فى ضوء الغسق . رفع عصاه ليلكز بها يونس لكن هزة عنيفة أوقعته على الأرض فى حين تشبث عبد الرحمن باللوح الخشبى خلفه ! هرع يونس ليمسك بعويس ويساعده على النهوض فى مواجهة الهزات التى حاولت الإيقاع به مرة أخرى لولا مساندة يونس !

تماسك عويس معتمدا على عصاه الغليظة دون أن ينظر إلى يونس لكن الغيظ كان يتفجر من جوانحه ! سار مستندا إلى كل ما يقع فى طريقه من جدران أو أعمدة وهو يلعن اللحظة التى أتاحت لهذا الولد ادعاء الولاء والشهامة ، حتى يمسك العصا من النصف ويصبح حبيب الكل ! لكنه مهما فعل فلن ينال غرضه ، ولا بد أن يعرف حجمه إن عاجلا أو آجلا ! وحضور الرعاد حفل زفافه لا يعنى سوى تحديد هذا الحجم إلى أصغر قدر ممكن ! وهو لن يكون أخطر من أبيه بأية حال من الأحوال !

بزغت الشمس لتفرش الأمواج المتهادية بدفقات الضياء . هدأت

المراكب من سرعتها ، وسرعان ما انفصلت مركب عويس لتلقى غزل السردين المجهز بالفل والرصاص على شكل نصف دائرة حول السردين الذى لمحه يونس ببصره الثاقب ، وسرعان ما اصطدم السردين بالغزل الذى ابتلعت عيونه رءوس السردين الذى دخل ليصبح أسيره . كان عويس يصدر الأوامر ويتابع الغزل الذى بدا ثقله واضحا من قطع الفل التى تختفى أحيانا بالشبكة تحت سطح المياه الشفافة ، ومع ذلك أصدر أمره ليونس بالقفز ليتأكد من حجم الصيد ! تبادل يونس المتشبث بحافة المركب نظرات ذات معنى مع عم عبد الرحمن ثم ألقى بنفسه فى المياه كدرفيل رشيق ليختفى عن الأنظار !

كان مرسى يقف على مقربة ، ونظراته ترسل ومضات غامضة غريبة إلى المكان الذى ابتلع يونس ، فى حين تنقلت عين عويس اليمنى بين المكان نفسه ووجه مرسى . كانت الشمس المتفجرة بدفئها الذهبى الساطع تفضح الوجوه وتخرج انفعالاتها الكامنة تحت سطحها الداكن ! اهتز الغزل وسرعان ما انطلق يونس وحوله الرذاذ المتناثر ليعلن فى ثقة بالغة لعويس أن الغزل لا يمكن أن يصيد أكثر مما اصطاد . أشار عويس بذراعه فشرع الصيادون فى جمع الغزل رويدا رويدا وتخليص السردين منه وتشوينه فى الثلاجات .

لم تخف على يونس نظرات مرسى الحائرة المترددة التى تقول كل شىء ولا شىء فى الوقت نفسه ، فى حين همس عم عبد الرحمن فى أذن يونس بألا يقلق لأن الأمور سرعان ما تتضح ، فالبحر كفيل بأن يعرى النفوس ! لكن عويس الواقف بالمرصاد سأل عبد الرحمن عما همس به فأجاب الشيخ

المحنك : أبدا .. قلت له : البركة فى كتر الأيادى !

انهمك الصيادون فى تنظيف الغزل وخيوطه من أعشاب البحر والمواد اللزجة العالقة بها ، ثم جمعه للتهوية لحين بلوغ البر ونشره فى الظل حتى يجف .

ومع تحرك المركب بجوار أخرى انضمت إليها ، شرع الصيادون على المركبين فى تجهيز اللوات ذى الطبقة الواحدة والمُركب به رصاص من أسفل وفل من أعلى أيضا . كانت كل مركب تحمل نصف الغزل ، فتم ربط النصفين أحدهما بالآخر . سارت المركبان مع رمى الغزل فى المياه على شكل دائرة أخذت استدارتها كاملة ثم أخذت مركب عويس طرفى الغزل ، فى حين أمسكت المركب الأخرى بالغزل من الوسط ، كل فى اتجاه مضاد للآخر وذلك لجمع جانبى الغزل أحدهما على الآخر . وسرعان ما قفز يونس ومرسى وبعض شباب الصيادين فى المياه لجمع الحبال المركبة فى أسفل الغزل الذى امتلأ بالأسماك ، وبعد ذلك تم سحبه على ظهر المركبين من كلا الطرفين ! ومع ذلك لم يواجه مرسى يونس بل تجنبه تماما !

وبعد ذلك توالت عمليات الصيد فى فترات متقطعة حتى انتصف النهار ، والمراكب تتنقل من بقعة إلى أخرى . مرة مركب بمفردها ثم مركبان ثم خمس مراكب معا عند استخدام غزل الطوانس المكون من فرقة غزل ذى طبقة واحدة بدون رصاص وفل ، وفرقتين أخريين من غزل ذى ثلاث طبقات فى كل منهما بوص لتعويمه على سطح الماء . كانت نظرات الصقر منطلقة كالسهام من عينى عويس وكأنه يقود معركة بحرية وهو يتابع وضع الفرقة الأولى بشكل رأسى مثبت بالبوص وعلى أبعاد متناسبة ، ثم وضع

الفرقتين الأخريين بشكل أفقى على سطح الماء ؟ فى حين أخذت قطعة الغزل ذى الطبقة الواحدة شكل نصف دائرة بحيث كون طرفاهما شكلا حلزونيا ، وربطت كل قطعة من قطعتى الغزل ذى الثلاث الطبقات ، كل واحدة إلى طرف الغزل المكون للشكل الحلزونى .

وقفت مركب عويس ومعها مركب أخرى فى مكان يناسب موقع الغزل ثم تقدمت المراكب الأخرى من مسافة بعيدة مقتربة نحو الغزل لطرد الأسماك داخله ، وإذ بكل مركب تلقى بطراحة داخل دائرة الغزل فى حين تقدمت مركب عويس ومعها المركب الأخرى ، كل إلى أحد طرفى الغزل ، وشرعتا فى جمعه على ظهريهما فبدت أسماك المرجان وهى تتلاعب أو تحتضر بلونها الوردى الداكن داخل شبكة الموت .

وعند الغروب اقتربت المراكب من المنطقة الصخرية التى تكمن فيها أسماك الوقار والوحش ، فألقيت شبكة الكتان المتين ذات العيون الواسعة التى تسمح بدخول رأس الوقار أو الوحش . أمر الرعاد يونس بالنزول لتخويف الأسماك وطردها من جحورها لتندفع هاربة فتقع فى الغزل ! وفى نفس اللحظة التى نفذ فيها يونس الأمر إذ بمرسى يلقى بنفسه هو الآخر . حام يونس حول الصخور فى حرص شديد وهو يضرب الماء بذراعيه وساقيه فى عنف صاخب جعل الأسماك تطل من جحورها الصخرية بعيون زجاجية ثم تنطلق هاربة فتقع فى الغزل ، لكنه فوجىء بصياد آخر يقترب من الصخور أكثر من اللازم حتى تكاد ذراعاه تدخلان الجحور ، ومن خلال تماوج المياه فى سكونها الرهيب تبين أنه مرسى ! صاح فيه بأن يبتعد عن الجحور لكن مرسى رد لأول مرة بصوت مكتوم بأنه لا يقل عنه مهارة وسيثبت ذلك للجميع !

ظل كلاهما يحومان حول الصخور ويضربان المياه بعنف ، وأفواج الوحش والوقار تقع فى الأسر ، لكن مرسى فى اقترابه الشديد من أحد الجحور العميقة فوجئ بسمكة ضخمة من نوع غريب لا يقل طولها عن متر ونصف ، تخرج من الجحر كالسهم الفضى لتفتح فكيها كمنشارين حادين ، وتطبقهما على ساق مرسى الذى صرخ صرخة كالعواء الذبيح ! انطلق يونس صوبه كالمسعور ولون الدماء القانى يفقد كثافته ويبهت مع امتزاجه بالمياه المالحة . ضرب بطن السمكة المتوحشة بسيف يده فالتوت تاركة ساق مرسى لتستدير محاولة قضم يونس الذى أثار حولها من صخب الأمواج ما جعلها تفر مذعورة إلى جحرها مرة أخرى !

أمسك يونس بمرسى وسبح صاعدا فى الوقت الذى قفز فيه صيادون آخرون بمجرد رؤيتهم لطلائع اللون الأحمر التى بلغت السطح الأزرق الفاتح المتماوج ! طفا يونس حاملا مرسى وحوله الصيادون العائدون معه يتساءلون عما جرى فى حين وقف عويس على سطح المركب يقول بصوت عال : كنت أظن أن مرسى سيفتك بيونس !! فإذا العكس هو الذى يقع !! بسبعة أرواح مثل القطط !

لكن أحدا لم يلتفت إلى ادعائه السخيف ، فقد لمحوا ساق مرسى وفهموا كل شيء ! ولولا يونس لكان مرسى فى خبر كان ! هرع الصيادون لحمل مرسى من ذراعى يونس المنهكتين إلى عنبر واطئ السقف بحيث لا يستطيع أحدهم الوقوف فيه منتصب القامة ! تمدد مرسى على دكة خشبية ، وصرخات الألم المكتوم تقفز من عينيه وشفتيه . أسرع بالتقاط مطواه كانت فى حزام مرسى وقام بعملية حجامة لموضع العضة بعد أن مزق السروال

وربط الساق فى أعلى الجرح وأسفله بقميص قديم استعمله كرباط محكم ، ثم ترك الدم يسيل من الحجامة أطول مدة ممكنة ، بل قام بمص الجرح أيضا وبصق الدم على أرض العنبر ثم صاح فى الصيادين المتجمهرين خارج باب العنبر وهو ينفض الماء عن سرواله الصوفى :

ـــ ألا يوجد صبغة يود أو ميركروكروم أو محلول السليمانى ؟!

عشش الصمت على رءوس الصيادين لكن صوت عويس اخترقه من على سطح العنبر :

ـــ لا يوجد .. ولن نضيع الوقت ونتظاهر بالشهامة ! كل واحد منكم إلى موقعه .. أريد رفع الغزل وتجميعه فى الحال !

تردد الصيادون لبعض الوقت لكنهم عادوا إلى مواقعهم مثقلى الأقدام يجرونها كما لو كانت من رصاص ، تاركين يونس مع مرسى يرعاه وليس بيده ما يرعاه به !

تأوه مرسى ونظر إلى يونس بصفرة وجهه وارتعاشة شفتيه :

ـــ لا أعرف كيف أشكرك !! رددت الإساءة بإنقاذ حياتى !

ـــ لا شكر على واجب !! لكننى سمعت عويس يلمح بأنك قفزت لتتخلص منى بمطواتك !!

ـــ من يواجه الموت لا يكذب !! وقد تكون العضة سامة ولا أحتملها حتى بلوغ البر !! أعترف بأنى شكوتك للرعاد والحقد يحرقنى من الداخل !! لكننى ندمت على فعلتى عندما علمت أنك تنوى الزواج من حورية !! لا تؤاخذنى يا يونس .. فكل الشائعات حولها تؤكد أنها ملك الجميع !!

ــ الضعفاء لا يملكون سوى افتراس الأضعف .. فى الوقت الذى يعبدون فيه القوى الجبار لأنهم لا يملكون حياله سوى الرضوخ والاستسلام !

ابتسم مرسى ابتسامة شاحبة ليونس على مقعده المتهالك :

ــ مهما حدث فأنت زميل عمرى !! ولو كتب الله لى أن أعيش فسأرقص وأغنى فى فرحك برغم صوتى القبيح !

تجسد العزم الحديدى على خطوط وجهه وحمرة عينيه :

ــ سنعيش بإذن الله ! وإذا لم تتحسن حالك لا سمح الله .. فلن انتظر عودة المراكب ! سأعود بك حتى لو فى قارب صغير ! فالرعاد كما ترى لم يمد المراكب بأبسط الإسعافات الأولية !

ربت مرسى على ساق يونس القريبة منه :

ــ لا تؤاخذنى !! لماذا كل هذه الرعاية وأنت لم تلق منى سوى كل حقد وجحود ؟!

ــ لو قابل كل إنسان الإساءة بإساءة أخرى أو بأسوأ منها .. لكان العالم قد انتهى منذ زمن بعيد ! وهذا هو ما يريده الرعاد أن نأكل بعضنا بعضا مثل السمك !!

سمعا دقات قدم خشبية ثم اظلم العنبر ! سد شبح عويس الباب فمنع فلول الغروب من التسلل . تساءل بصوته المشروخ :

ــ ما الذى أتى بسيرة الرعاد ؟!

تماسك يونس حتى يفحمه برد جارف وهو ينفض الماء عن الصديرى :

ــ لم ترد سيرته على لساننا ! كنت أتساءل عما يمكن أن أفعله لو ساءت

حالة مرسى ؟!

أطلق عويس ضحكة صماء مع اهتزازة المركب :

— ما كل هذا الحب الذى هبط عليك فجأة ؟! أنسيت شكواه ضدك ؟

— نحن بشر ومعرضون للخطأ !! أنا نفسى ليلتها كنت على وشك أن أقتله !!

— ولم ينقذك منه اليوم سوى السمكة !!

تململ مرسى فى رقدته وكان على وشك أن يفتح فمه لكن يونس قبض على يده قبضة أمرته بالصمت وهو يسأل عويس :

— متى سنعود إلى البر ؟!

— وتظن نفسك صيادا وتسأل هذا السؤال !!

تهدج صوت يونس فى ظلام العنبر وهو يجفف شعر رأسه بيده :

— لو ظهرت عليه أعراض التسمم أو أصيب بالحمى .. سآخذه فى قارب !

تهلل صوت عويس وكأن الفكرة لاقت صدى رائعا عنده :

— وأنا على استعداد أن آمر بإنزال القارب الآن وفورا !

خرج صوت مرسى مرتعشا خافتا :

— أفضل لى أن أموت هنا وحدى من أن نموت معا فى ظلام البحر !

قال عويس ليونس متسائلا فى حزم آمر :

— ألن تشترك فى صيد البورى ليلا ؟!

— لا أستطيع أن أترك مرسى وحيدا !

— إذا كنت تظن نفسك رسول العناية الإلٰهية فلا بد أن تدفع الثمن !

سأخصم كل المرات التى لن تشترك فيها !!

ـــ وهذا المسكين ؟! أليست إصابته إصابة عمل ؟!

لم يرد عويس واستدار بدقة من ساقه الخشبية ليبتعد لكنه سرعان ما عاد يقول ليونس :

ـــ منذ عشرين سنة بترت ساقى من عضة سمكة ولم أولول كالنساء !! على كل حال إذا أردت القارب فى أية لحظة فسآمر بإنزاله فورا !! فأنا أيضا أحب فعل الخير !

وسار بدقته الخشبية تاركا العنبر فى ظلام دامس فى ليلة رحل فيها القمر ليترك الوحشة تسرى فى النفوس مع صرير ألواح المركب الخشبية تحت ضغط الأمواج ولطماتها . همس يونس وهو ينهض من مقعده المتهالك المتمايل مع المركب :

ـــ سأحضر مصباحا !

أمسك مرسى بساق يونس متضرعا :

ـــ أرجوك ! لن أحتمل أى ضوء في عينى !

ـــ كما تحب !

عاد يونس إلى جلسته متسائلا بعينين جاحظتين بحمرة مالحة :

ـــ كيف الحال الآن ؟!

ـــ لا أشعر بأى تحسن ! وهناك قشعريرة تسرى فى جلدى ! لكن الحمد لله على وجودك معى ! أرجو أن أعيش فقط لأرد جميلك !

ـــ أستغفر الله يا مرسى ! كل ما أتمناه أن تمر الليلة بخير !

ـــ يريد أن يتخلص منا فى قارب واحد !

ـــ طول عمرى أو من بأن الأعمار بيد الله ! ليس لأحد .. مهما كان .. أن يقصر أو يطيل حياة إنسان ثانية واحدة !

ـــ ونعم بالله ! اعطنى عمرا وارمنى فى البحر !

ران صمت ثقيل لم يقطعه يونس ظنا منه أن مرسى غفا إرهاقا وإجهادا ، فتركه لإغفاءته لعل النوم يكون بلسما لجرحه . ظل على جلسته والمركب قد شرعت فى الحركة مرة أخرى مع هدير محركها . لم يعد يهتم بأى شىء بعد أن رأى إلى أى حد أصبحت حياة الإنسان رخيصة ؟! فما وقع لمرسى يمكن أن يقع له أو لأى صياد آخر ، فيترك هكذا لمصيره فى حين تعيش القطط فى قصر الرعاد عيشة الملوك !! لكن السؤال الملح الذى تراقص أمام عينيه فى ظلام العنبر نهشه بالحيرة والتمزق : إذا كانت حياة الصيادين نفسها قد هانت إلى هذا الحد ، فعلى أى شىء يحرصون ومن أى شىء يخافون ؟! يبدو أن الإنسان الذى اعتاد ظلام الذل لا تقدر عيناه على نور الكبرياء ! مثل مرسى الذى لم يحتمل مصباحا خافتا ، هذا إذا وجد ! هل يمكن أن يدمن الإنسان أى شىء حتى الذل ؟!

تمايلت المركب وتضاعف صريرها لكن محركها ركن إلى السكون مرة أخرى . سطعت أضواء خارج العنبر فعرف أنهم شرعوا فى صيد البورى لكن أنات صدرت من مرسى فأمسك يونس بيده التى لسعته برعشتها ! كان جسده كله ينتفض فأسرع بتغطيته ببساط مترب مهترئ كان يفترش أرض العنبر وحاول ضمه به بأقصى ما تبقى من قوة . لمس جرحه فارتاح للنزيف الذى توقف بفعل الضمادة القوية ، لكن الجرح كان يشع سخونة مخيفة ! أسرع بعمل كمادات من زير موضوع خارج جدار العنبر ! كانت

المياه باردة لكنها سرعان ما كانت تتبخر بمجرد ملامسة الكمادة لجبهة مرسى الذى بدأ فى الهذيان يمزج أسماء يونس وحورية والرعاد وعويس بالندم والأسف والخوف والقلق ، خاصة كلما ارتعش جسده الملتهب مثل ورقة طافية على سطح المياه وسط عاصفة بحرية هوجاء !

كانت ليلة ليلاء لم يغمض فيها ليونس جفن ! كان يدرك تماما أن وقوفه إلى جانب مرسى فى محنته هو فى حد ذاته معركة خفية خبيثة يخوضها ضد مؤامرات الرعاد التى تهدف إلى عزله وخلع جذوره من البلد الذى أحبه ومنحه عمره ! ويوم يحضر الرعاد حفل زفافه سيكتشف الجميع سذاجة محاولاته وغباء خططه ، بل إنه يفكر له فى بعض المفاجآت التى لا تخطر بباله حتى يعلم أنه ليس الوحيد الذى يجيد فن المبادرة المذهلة !

لم يجد يونس سوى الكمادات بطول الليل ، وتلبية طلبات مرسى المحمومة لتجرع أكواب المياه الباردة ! كان الصداع يدق رأسه بمطارق من حديد ساخن يسرى فى عروقه مع ارتعاشة الكمادة الباردة ! ولم تهدأ صيحات الصيادين ، ولم تنطفئ أضواء المصابيح إلا مع اقتراب الثالثة صباحا عندما انتهى صيد البورى !

ومع الخيوط الأولى للفجر قرر يونس أن يهبط بمرسى فى أحد القوارب لأن حالته لم تتحسن وإن كانت سخونته قد هبطت بعض الشىء ! فلا يعقل أن يتركه على هذه الحال بعد أن اعتمد عليه الصيادون فى العناية به ! لقد أصبح مسؤليته ولا بد من العودة به إلى البر قبل فوات الأوان ! صحيح أن عويس يتمنى أن يغرق بهما القارب لطول المسافة فى بحر غادر ، لكنه لا يعلم أن غرقهما سيكون أول مسمار يدق فى نعش الرعاد وعصابته التى تملك

المال والعتاد لكنها تظل أقلية هزيلة يمكن أن تسحقها الأغلبية الصامتة فى لحظة عابرة من الزمن ! أما إذا كتبت لهما النجاة فستكون بمثابة طعنة نجلاء فى قلب الرعاد الذى يتفنن فى سياسة « فرق تسد » ! ما أحوج الصيادين إلى القدوة أو إلى المثل الأعلى الذى يهز صميم وجدانهم ، ويزيل الصدأ من على جوهره اللامع ، ويحيلهم إلى موجة عارمة تكتسح فى طريقها كل من يحاول التصدى لها ، مهما كان يملك من مال أو عتاد أو سطوة !! عندئذ فقط يمكنهم إغراق الرعاد فى الماء العكر الذى يجيد الصيد فيه !!

مع انتشار طلائع الفجر الحانية عند خط انطباق السماء على البحر ، ذهب يونس إلى عويس فى قمرته الفاخرة التى دخلها لأول مرة بعد دقات على بابها لم تلق استجابة ! كان عويس مسترخيا فى مقعد طويل استغرقه تماما ، وعلى مائدة مستديرة إلى جواره ، زجاجة بها بقايا خمر ، وفى أحد الأركان جهاز لاسلكى ! خرج عويس من نشوته المخمورة على شبح يونس أمامه فانتفض جالسا :

— كيف تدخل بدون إذن ؟!

لم يهتم يونس بلهجته المنذرة بل همس فى هدوء مخيف :

— ليس ذنبى إذا لم تسمع دقاتى !! المهم أن حالة مرسى لا تطمئن وأخشى أن تكون السمكة سامة !!

— لا زلت عند وعدى بإنزال قارب فورا !

أشار يونس إلى جهاز اللاسلكى ، وعيناه الحمراوان على عويس :

— ولماذا لا نتصل بالبر لإحضار لنش سريع !

— هل أصبحت أتلقى التعليمات منك ؟!

— إنها مسألة إنسانية بحتة !

— إذا أجابوا .. فسيطلبون عودة المركب ! وهذا لن يحدث من أجل عيون مرسى الذى أرسلك الله لإنقاذه !

لم يعبأ يونس برنة السخرية بل قال بثبات مثير محنق :

— يضع سره فى أضعف خلقه !

دق عويس بيده على المائدة وأنزل ساقه الخشبية على الأرض :

— إذا أضعت الوقت أكثر من هذا فلن تحصل على القارب أيضا !

— أمرك !

أصدر عويس أمره إلى الصيادين بإنزال القارب بين مصدق ومكذب للمخاطرة التى قبلها يونس فى لحظة جنون ! بل إن بعضهم لم يصدق عينيه والقارب يهبط بالحبال ليستوى على سطح المياه إلى جوار المركب ، ومرسى يسير متكئا على أذرع زملائه ، وعيناه زائغتان تنظران إلى المجهول عند خط الأفق البعيد . هبط اثنان منهم على الحبل وقد أمسكا بمرسى فى حين سبقهما يونس إلى القارب . استرخى مرسى على لوح خشبى فى حين أصر ثلاثة من الصيادين على اصطحابهما لكن عويش زجر أعلى المركب :

— من يريد الرحيل .. لن يعود مرة أخرى على مراكبنا !

طلب يونس منهم فى حزم أن يصعدوا فهو قادر على توصيل مرسى إلى بر السلامة ! رضخ الصيادون وتسلقوا الحبل ولكن فى تردد قاتل ! تحولوا جميعا فى وقفتهم الذاهلة على حافة السفينة إلى عيون جاحظة ، وقلوب واجفة ، ونفوس ملتاعة ! لكن ما باليد حيلة ! تابعوا القارب الصغير فى طفوه الصاعد الهابط مع تجديف يونس الذى لم يبد عليه الإرهاق برغم سهر

الليلة الليلاء وجهد اليوم الشاق قبلها ! ظل القارب يتضاءل حتى تحول إلى بقعة داكنة وسط الزرقة الخضراء الشاسعة وهو يقترب من خط الأفق حيث تنطبق السماء عليه ، لكنه قبل أن يختفى اخترقت أوامر عويس الصارخة الآذان للاستعداد للصيد الجديد فهرع كل منهم إلى موقعه وإن كانت عيناه متشبثتين بالأفق البعيد بقدر إمكانه !

ابتلع الأفق القارب ، ويونس يواصل التجديف اللاهث مع بوادر عاصفة بحرية سرت ببرودتها المشبعة بالرطوبة والملوحة . قطع يونس فحيح البحر بسؤال زاخر بالعطف المتدفق من حمرة عينيه :

ــ كيف حالك الآن ؟!

ــ لم أعد أفكر فى نفسى بقدر ما أفكر فيك !! ما فعلته جبروت أو حتى جنون بمعنى الكلمة !!

لم يسترح يونس لنبرات مرسى اللاهثة الخافتة المتقطعة المترددة فقرر أن يشحذ إرادته بكلمات من بين فكين حديدين :

ــ الجبروت لا يقابل إلا بجبروت آخر وإن كان من نوع مختلف !

ــ وما ذنبك أنت ؟! إحساسى بالذنب أبشع من سخونة الحمى !

ــ إنها معركتى كما أنها معركتك !

ــ أرجو أن نصل بالسلامة .. من أجل حورية !

ارتسم وجه حورية الأسمر الدقيق الجميل على جبين الأفق الصافى الشفاف فغطاه تماما ! ابتسم يونس فى حنان وتصميم :

ــ سنصل !

ــ بإذن الله !

جثم فحيح العاصفة على حفيف الأمواج فأنّت تحت ضغطها ورفعت أياديها فى استسلام صاخب ، ورذاذ متلاطم على وجه يونس الذى قال لمرسى وقد زادت حمرة عينيه الجاحظتين :

ـــ يبدو أن البحر يقدم لك الكمادات المطلوبة !!

ابتسم مرسى فى إعياء أوشك أن يغمض عينيه :

ـــ أريد أن أتناوب التجديف معك !!

ـــ إننى لا أجدف طوال الوقت ! فنحن نسبح مع التيار كما ترى !

ـــ أرجو ألا تشتد العاصفة أكثر من هذا !

لمح يونس بعض الأعشاب والحشائش الطافية على وجه المياه الصاخبة وكأنها تتصدى للعاصفة :

ـــ لسنا أقل شأنا من هذه الأعشاب والحشائش !

لكن العاصفة اشتدت وعلا زئيرها ، وزمجر البحر وتحول إلى جبال وتلال وسهول ووديان ! وأصبح القارب كرة يتقاذفها مردة وشياطين انشقت عنهم الأمواج ! استمات يونس ليحفظ توازن القارب مع تشبث مرسى بالدفة فى صراع هادر بالموت والحياة ! نسيا عويس والرعاد والحمى والجرح والحزن والألم والخوف فى حومة العناد الملحمى من أجل استمرار الحياة ! لم يسمح يونس للهجمات المالحة كى تثقل على القارب فكان ينزحها بيسراه دون أن تترك يمناه المجداف الأيمن !

تحول مرسى إلى طاقة مشتعلة هو الآخر فأسرع بإمساك المجداف الأيسر دون أن يمنعه يونس ! جلسا جنبا إلى جنب يقاومان المصير بقوة حديدية لم يعرفا من أين حصلا عليها ؟! مر وقت كدهر أو كلحظة وإذ بهما يشعران

وكأنهما نجحا فى ترويض العاصفة التى انداحت رويدا رويدا لتحل محلها ريح مواتية أحالت السطح إلى مهاد يتهادى فى تماوج كملاءة زرقاء خضراء داكنة شدت أطرافها الخفية بحبال تمتد إلى أركان الدنيا ! انتهز يونس فرصة الهدوء النسبى وشرع فى نزح المياه من قاع القارب الذى طالما علا أنينه وصريره تحت ضربات الأمواج الطائشة !

انطلق القارب مع التيار فركن كلاهما للراحة وإن لم تبد أية بشائر للبر الذى لم يجده مرسى بعد أن دقق البصر وقال متسائلا :

ــ هل نسير فى الاتجاه الصحيح ؟!

ــ لا تقلق .. فأنا أحفظ المنطقة مثل راحة يدى !! كما أننى رصدت نجمة الفجر قبل تركنا المركب !!

ــ لا شك أن عويس يمنى نفسه بغرقنا !!

ــ ويمكن أن يكون قد أبلغ الرعاد بأمنيته باللاسلكى !!

ــ أرجو أن يخيب الله ظنه !

ــ فات الكثير .. وما بقى إلا القليل !

اقتربت الشمس من كبد السماء فأصبحت بمثابة القلب منها ، القلب الذهبى الذى أشاع الدفء فى جسديهما المنهكين المستلقين على ألواح القارب . أضاف يونس :

ــ إذا كان هذا القارب الصغير القديم قد قاوم العاصفة العاتية .. فكيف يغرق مركب أبى الخبير المحنك ؟!

ــ لكن لماذا لم يرسل عويس وراءنا من يغرقنا ؟!

ــ ربما لثقته أن القارب لن يحتمل !!

ران سكون عميق مع حفيف البحر ، وعادت قشعريرة الحمى لتسرى فى مسام مرسى وتتحول إلى رعشة ملتهبة انتقلت إلى ذراع يونس بمجرد ملامستها لذراع مرسى ! أعاده إلى جلسته الأولى يُمسك فقط بالدفة وأمسك بالمجدافين ليساعد الريح على الانطلاق بأقصى سرعته ! ظل مرسى متماسكا قدر الطاقة حتى جحظت عيناه ، فنظر يونس خلفه فإذا به يرى بعض قوارب الصيد التى بدت بقعا وخطوطا سوداء داكنة فى الأفق ! تهللت نظراتهما واستمات يونس بذراعين من حديد على مجدافين من خشب حتى اقتربا من القوارب التى لملمت شباكها وانطلقت تجاههما . شعر يونس بطاقته تخذله وتتسلل من أطرافه وعيون الصيادين الخابية تشع بالحب والحنان والفهم لما جرى لهما دون أن ينبسا بكلمة واحدة ! قفز أحدهم فى قاربهما وقام بربطه إلى القارب الكبير الذى انطلق مع القوارب الأخرى فى مهرجان صامت إلى بر الأمان !

٤

توافد أهل البلد على السرادق الصغير الذى أقيم للاحتفال بزفاف حورية إلى يونس الذى أصر على أن يكون أمام بيتها حتى يجبر الجميع على الاعتراف علنا بكبريائها وكرامتها . بدا السرادق متواضعا بجدرانه التى صنعت من القلوع القديمة ، ومصابيحه الغازية التى لم تبدد الظلام كله ، وبساطه المتآكل الذى فقد لونه ، ومقاعده الخشبية القديمة التى عرفت الترميم أكثر من مرة باستثناء المقاعدة المذهبة الضخمة ذات الحرير الأخضر المشجر التى وضعت إلى جوار مقعدى العريس والعروس فى انتظار قدوم الرعاد ورجاله !

مزج الربيع الدفء بالبرودة المنعشة وقد تأنق الصيادون فى انتظار العريس والعروس فارتدوا ملابس العيد النظيفة المكوية التى لا يبدون فيها إلا فى ثلاث أو أربع مناسبات فى السنة . علا صوت رشف شراب ماء الورد الأحمر مع تدخين السجائر الأجنبية التى يجلبها البمبوطية لأصدقائهم وأحبابهم . أما عم عبد العليم بائع الكتب المستعملة سابقا ، وصاحب كشك الصحف والحلوى والسجائر وشرائط الكاسيت فقد جذب الأنظار إليه ببوادر النعمة التى بدت على وجهه الذى اختفت عظامه ، وملابسه الصوفية الفاخرة ، وحذائه الأسود اللامع ، وعمامته البيضاء الناصعة ، وجلسته الشامخة إلى جوار عم عبد الرحمن وهو يضحك ساخرا من نفسه

عندما كان يبيع الكتب المستعملة التى لم يزد ربحها عن قروش زهيدة ، ويكيل الحمد والثناء للرعاد الذى نقله من قاع الفقر إلى قلب الرفاهية فى غمضة عين !

لكن مرسى شارك عبد العليم فى جذب الأنظار إليه ! كانت هناك آثار شحوب على وجهه ، وعرج خفيف فى ساقه اليسرى لكنه كان يتنقل فى خفة الفراشة لخدمة المدعوين السعداء بزفاف ابنهم وأخيهم الحبيب ! وسرعان ما كانت أكواب الشراب الأحمر توزع وفى لحظات تجمع فارغة فى حين انهمك العجائز فى لف التبغ من العلب الصفيح . أراد عم عبد العليم أن يلفت الأنظار إلى النعمة التى غرق فيها حتى أذنيه فإذا به يدير جهاز التسجيل الذى وضعه على مقعد إلى جواره فيصيح بصوت مطرب شعبى هللت له الوجوه مع أنغام السمسمية :

— شلباية البحر يا ليلة الدخلة عجبتينى
مــدى دلالك على الابحار عدينـــى
عـــديت دلالى على الابحار عديـــتك
لو كان خشيمى قليلة كنت زجيتك
لو كان حديدى رغيف كنت غديتك
لو كان صباعى سجارة كنت كيفتك
بعينــــى رأيت السمك بـــــيصلى
فروجنـــا يخرط بصلى ويتـــــجلى
وحمامنــــا يرمـــــى محارم تلى
يـــا ريس الوابـــور يـــا عشـــملى

خل القلـــوع خللى العـــــريس يدللى
وبعينـى رأيت عريسنـا نزل من غرفتـــه
عمــــال يحدث فى الأميرة عمتـــــه
صدر الغـــــــروسة كم عجب يا للى !

علا صوت الأرغول ومعه الربابة والناى والطبلة وصيحات الإعجاب وآهات الاستحسان ، فنهض عبد العليم واقفا لتلقى التحيات والتهانى ثم قال بصوت زاخر بالرضا والثقة :

ـــ لا تتعجلوا .. أصبروا .. ليلتكم أنس !!

ثم جلس سعيدا وصوت المطرب الجهورى يلعلع :

ـــ عجبى على حليـوه فى المركب معديـــه
طلبت منه الوصال جال دا انتـا بلديه
جلت لو أنـا بلـديك ومجبض أبـوك ميـه
جال إن كان كلام جد روح لأبويا العشية
أطلب منه الوصال واديهم له خمر نجديـه
وأنا أفرجك ع الخوخ والتفاح والباجى عنبية !

لكن ضجة الزفة طغت على الحى كله ، والراقصة الغازية تتقدم الموكب بردائها الأخضر ذى الشراشيب والترتر والشخاليل ، وخصرها النحيل داخل الشال الأصفر الذى يكاد يخنقه ، وأصابعها التى تتلاعب بالصاجات التى تردد إيقاعات الطبول المحيطة بها من شباب الحى ، وإذ بمرسى يجرى وقد اختطف عصا من أحد الشيوخ ، وخلع الشال الأبيض الحريرى من حول عنقه ليلف به خصره ثم يشارك الغازية الرقص بالعصا والحجل بساقه

المربوطة ، والدموع تكاد تطفر من عيون الواقفين فى فوهة السرادق !

بدا يونس بقامته الممشوقة كالطود الشامخ فى جلبابه الأبيض ذى الأكمام الواسعة ، وعينيه السوداوين الواسعتين ، ووجهه الأسمر الذى قد من صخر ، وشاربه الذى لم يعد كثا ، وشاله الأحمر المترامى فى دلال حول عنقه وعلى كتفيه ، وقد تعلقت فى ذراعه حورية التى تماوج جسدها العفى فى ثوب الزفاف الأبيض ، وتحت الطرحة البيضاء الشفافة انسابت خصلات شعرها السوداء على كتفيها وظهرها ، وتألق وجهها البرونزى حول وميض عينيها الواسعتين العميقتين عمق البحر الذى يصر على توصيل هديره إلى السرادق وكأنه يشاركهم فرحتهم !

بلغ يونس وحورية مقعدى العرس فى الركن الأيمن من السرادق حيث استويا عليهما وسط الزغاريد وحبات الملح التى تلقى من كل حدب وصوب ، ومرسى لا يزال ينافس الغازية فى الهزات الراقصة ، لكن يونس داعبه بصوت عال :

— كفى يا مرسى ! تعبت أكثر من اللازم !

حك مرسى شاربه الكث وأزاح طاقيته خلف رأسه :

— الوفاء بالنذر عبادة !

— وساقك ؟!

— الفرح فى حياتنا نادر .. لا تحرمنى منه .. أنا فى عرضك !

قالت حورية فى حياء عذب :

— أكثر الله من أفراحنا يا مرسى !

أجابها مداعبا وهو لا يزال يرقص أمام الغازية :

ــ لا تهربى بجلدك منى ! فالرقص نصف النذر فقط .. أما النصف الثانى فهو الغناء وأمرك لله !

رد يونس ضاحكا :

ــ إنها فرصة عمرك بعد أن اعتزلت حورية الغناء ! على الأقل سوف تهرب من مخاطر الصيد !

دوت أبواق السيارات فى الخارج وإذ بالجالسين ينتفضون واقفين ، ومرسى يقول لهما :

ــ هلت مخاطر الصيد !

هبط الرعاد من السيارة السوداء الفارهة فى ملابس أولاد البلد : العباءة السوداء ، والعمامة البيضاء ، والشال الحريرى الأبيض ، والعصا العاجية ، والمسبحة الذهبية ، ثم عويس الذى قلد ملابس سيده وإن كانت أكثر تواضعا وهو يدق البساط المتآكل بساقه الخشبية خلفه ويرصد الحاضرين بعينه اليمنى ، ثم باقى الرجال الذين ساروا وفى عيونهم لمعان الفخر بمعية زعيمهم !

اخترق الرعاد الممر وهو يرفع يديه بالتحية ، ثم مال على عم عبد العليم ليخصه بسلام اليد الحار فما كان من عبد العليم سوى أن مال على يده وقبلها بين نظرات الاستياء المكتوم فى عيون الواقفين ! ثم أقبل الرعاد على يونس ليقبله ويفاجئه بدس مظروف فى يده حاول أن يقاومه لكن المفاجأة كانت أسرع من طلقة الرصاص التى تكررت مع حورية عندما شد على يدها بالسلام الحار والمظروف البارد ! قدمت حورية مظروفها إلى يونس فدس الاثنين فى جيب الجلباب الواسع فى حين شغل الرعاد ورجاله المقاعد المذهبة

المقابلة لهما !

فى منتصف المسافة بين الجناحين وقف مرسى ومعه حاملو الطبل والأرغول والناى والربابة ! بدت بوادر الدهشة على الرعاد ومرسى يمسك بالميكروفون الذى علاه الصدأ استعدادا للغناء ! تملكه الغيظ وهو يمسح السرادق بعينيه ويرى لمعة الإعجاب المشبوب بيونس فى نظرات الجالسين ! لقد أصبح بطلهم بعد إنقاذه لمرسى ! هذا المجنون المتهور الذى يتحدى الموت وجها لوجه ، يمكن أن يشكل خطرا محدقا به إذا واصل جنونه هذا دون أن يقع فى شر أعماله ! إذا فشل فى احتوائه فلا بد من طريقة أخرى للتخلص من خطره !

استيقظ الرعاد من تأملاته على صوت مرسى الذى اعتذر عن قبح صوته ، لكنه نذر ولا بد أن يفى به ! سرت الابتسامات والضحكات والهمهمات التى تعبر عن الترحيب والاستحسان فشم الرعاد رائحة غريبة فى الجو ، وشحن كل طاقاته ، فقد أكدت له حاسته أن ما بالنفوس لا يتغير بين يوم وليلة إلا فى الظاهر فحسب ، وأنه من الصعب التنبؤ بالخطوة القادمة لأى مجنون !

أشار مرسى للفرقة الواقفة خلفه ثم رفع عقيرته بالغناء مقلدا المطربين المحترفين . خاب أمل الرعاد فلم يكن صوت مرسى بالقبح الذى تصوره ، فقد غطت قوته على جماله المفتقد وعذوبته المتلاشية :

— دنا فى باطنى جرح جوا الجوف بالراحة
وحسيت عجلى خرج ويـاه بالراحة
وهبت عليا المريسى م الجهتين بالراحة

وصبحت كيف زرع هفه الشوق والمينا
وجعدت سنة حول حول لا زادن ولا مينا
يا هلترا مركبى ترسيش على المينا
وأمد رجلى وأطول البر بالراحة !

* * *

بين صيحات الاستحسان وآهات الإعجاب ، وضع الرعاد ساقا على ساق وقال بصوت كالرعد ألزم الجميع الصمت وكشف عن أنيابه المغلفة بالذهب :

ــ لماذا لم تخبرونى ؟! وأن أحضر لكم أحسن وأغلى مطرب فى البلد وعلى حسابى ؟!

برغم كل شىء لم يمنع يونس حاسة القتال عنده من البروز :

ــ أدام الله عزك يا سعادة البك ! صوت المحبة والأخوة أجمل ألف مرة من صوت المغنى المأجور !

كادت عين عويس الزجاجية تطير من محجرها وهو يرد على يونس :

ــ أصل الفقر حشمة !

أسرع مرسى ليقول للرعاد :

ــ إذا لم يعجبك صوتى يا سعادة البك .. فأنا آسف ! وبعد إذن سعادتك أنسحب !!

سرت كهرباء فى الجو لم يسترح لها الرعاد الذى أراد أن يحمل الحاضرين على أجنحة النشوة أيا كانت حتى يصل إلى خبايا الصدور فقال ضاحكا :

ــ أبدا .. أبدا .. ما يسعد أخوتى يسعدنى .. غن يا مرسى !

ارتسمت ابتسامة زاخرة بالمعانى المتناقضة على وجه يونس :

ـــ حفظك الله لنا يا سعادة البك !

أشار مرسى إلى المجموعة خلفه هامسا :

ـــ أغنية الصيادين !

بدأ العزف المشحون بالحماس ومرسى ينشد :

ـــ هيلا وأنا ما لى !

فترد المجموعة :

ـــ يا حبيب ما لى !

ـــ يا مصر مانتش

ـــ ما انتش بعيده

ـــ على اللى قلوعه

ـــ يا واد جديده !

* * *

صاح الرعاد مقاطعا مهللا ومصفقا لدرجة أذهلت الحاضرين ومنعتهم من مشاركته نشوته وهو يقول :

ـــ الله يخرب عقلكم يا أولاد ! تغنون أغنية الصيادين هنا فى الخيمة أما على المركب فأنتم صم بكم ؟! كأنكم فى جنازة ؟!

لم يلتزم يونس الصمت كعادته :

ـــ لو سمح لنا السيد عويس .. فسوف نحول المراكب إلى أفراح !

كان عويس على وشك أن يتكلم لكن الرعاد أسكته صائحا :

ـــ وأنا أموت فى الأفراح !

ثم أشار إشارة ذات مغزى لرجاله الذين انتفضوا خارجين وقد تحول السرادق إلى عيون تتبعهم ! وسرعان ما عادوا بعد أن أخرجوا من مؤخرات السيارات الفارهة صناديق وأكوابا ورقية ، وشرعوا فى توزيعها على الحاضرين وهم يصبون الخمور من الزجاجات المختلفة التى كانت فى الصناديق ! رضخ الصيادون للأكواب التى وضعت فى أيديهم ، وتظاهر بعضهم بالشرب ، فى حين تردد البعض الآخر ، أما بعض الشباب فتهلل لمرأى الخمر وصب الكوب فى حلقه بمجرد حصوله على نصيبه ؛ والرعاد يصيح متتبعا رجاله بنظراته الجاحظة ودخان سيجاره الصافى :

ـــ الهدية لا ترد ! خصوصا هدية الرعاد !

أسرع المترددون والمتظاهرون بالشرب بتجرع محتويات الأكواب وهم يخفون قدر الإمكان خطوط الامتعاض على وجوههم المعروقة ! بلغ الرجال يونس الذى قرر أن يفوت على الرعاد معركة جانبية لا لزوم لها فتجرع الكوب فى رشفة واحدة ، خاصة أن أحدا من الرجال لم يجرؤ على تقديم كوب لحورية الكامنة إلى جوار عريسها . تهلل وجه مرسى وهو يتناول الكوب فى عجلة واضحة بين ضحكات الرعاد وتحذيرات يونس :

ـــ إياك أن تنسى نفسك يا مرسى ! وإلا تحول الطرب إلى هذيان !!

أجاب مرسى فى ثقة باسمة وقد انتهى من الكوب :

ـــ وهل يرفض اليتيم كعكة لذيذة جاءته فى غفلة من الزمن ؟!

تناول الرعاد كأس الويسكى من أحد رجاله وهو يصيح :

ـــ أين مواويلك يا مرسى ؟! فأنا على وشك أن أصبح من المعجبين بصوتك !!

لاحظ يونس وميض الحقد فى عينى عويس ، حتى فى الزجاجية منهما ، لكن مرسى كان منتشيا بشهادة الرعاد :

— أرجو أن أكون عند حسن ظن سعادتك !! ولا حرمنا الله من مجاملاتك !! فكلنا أولادك !!

ثم أشار لفرقته هامسا :

— موال البط

وأنشد مع الأرغول والربابة والناى والطبلة :

— واجــف ع الشط باصطــاد بط وأنـــا عايم
صادنى غزال زيـــــن خدوده حمر ونعــــايم
من أصل عالى فى خير ونعـــــــــــــايم
وكيـف أطولــه ومــا بينــى وبينــه بعيــد
جنبـــــى غرج فى هواه يا با وأنــــا عايم !

* * *

صفق الرعاد طربا ، ويونس يحاول قراءة ما يدور فى رأسه الثعبانى السام ، فى حين ملأ أحد رجاله كوبا تجرعها مرسى حتى الثمالة ثم أنشد :

— طول عمـــــرى ريس ع البحــــــار
أتجلى طى الموج وأسافـــر مع التيــــار
جابلـــــونى ثلاثـــــة أبكـــــــار
الأولى جمر والثانيـــــــــــة هلال
والثالثـــــة هجت فىّ النـــــــار !

كان الرعاد على وشك التصفيق لكن صيحة مفاجئة من عويس

أسكتته :

— لا يوجد ريس على البحار سوى سعادة البك !

أجابه الرعاد ضاحكا :

— ريس فى المغنى فقط ! اشرب وانتعش وانس الشغل !

تناول عويس كأس ويسكى من أحد الرجال ، ومرسى يكاد ينشد له بمفرده مع حاجبه الأيمن شبه المتراقص :

— وإن هبهب الـــريح قلت لمركبـــى سيرى
وأنـــا أصبر صبر الخشب تحت المنـــاشير
ناديت يا طير يا طير بحق السمـــا العـــالى
تلـــم شملى وتجمعنـــى على الغـــالى !

* * *

تجرع عويس الكأس والشرر يتطاير من عينيه ، فإذا بيونس يطلب من مرسى موال السنط . أشار مرسى بسبابته إلى عينيه وأعضاء الفرقة يبتسمون فى سعادة :

— يا زارع السنـــط سنـــطك غربلـــه ونجيـــه
السنـــط منـــه منافـــع لما الجرض خليـــه
وإن عبت يا سوس فى خشب البندقة والزان
وأبو دقيقـــة انتفـــخ جاى يقتـــل التعبـــان
أوصيك يا حلو دا الجارب اللى اتخرق أوعاك تعدى فيه
لو كان حيطانـــه ذهب والموج بيرقـــع فيـــه
كل أنا ما أفرد قلوعـــى ع السفـــر تنحـــل
تهب نار المحبـــــة أتركـــــن للبر !

* * *

جن جنون عويس وصيحات الإعجاب وآهات الاستحسان تنطلق من الرءوس والأعناق التى تمايلت بأبخرة الخمور ! ومعها الرعاد مفتعلا النشوة الجارفة ! صاح عويس بحنجرة اختنقت بسؤاله :

ـــ من هو السوس وأبو دقيقة والثعبان والقارب المخروق ؟!

أجابه يونس بابتسامة قاتلة :

ـــ مجرد موال نحفظه كلنا عن ظهر قلب !

ران الصمت وتحول وميض النشوة فى عينى حورية السوداوين إلى حيرة وقلق من أن ينتقل الصراع إلى ليل عرسها فلا تبقى لها لحظات العمر التى يمكن أن تعيش على نورها فى أيام الظلام التى تتوقع منها الكثير ! فهى أدرى بعريسها وحبيب عمرها الذى لن يهدأ له بال إلا إذا عادت للصيادين كرامتهم . فالكبرياء ليست حكرا على الأغنياء فحسب ، وهى فى نظره ليست مجرد معاملة كريمة أو كلمة شكر تطيب الخاطر أو عطف أو تنازل من صاحب الأمر والنهى ، لكنها واجب يقابله حق ، وجهد وعرق لا بد لهما من مقابل يساويهما ، وإلا فعلى صاحب الأمر والنهى أن يحصل فقط على مقابل ما يدفعه ! أما إذا لجأ إلى السخرة والإذلال مستخدما سطوته وصلته بأصحاب السلطة ، ولا بد أن يلجأ إلى ذلك ، فسيقف له يونس بالمرصاد حتى لو دفع حياته ثمنا لذلك ، وحتى لا يضيعها هباء !

لم تعرف حورية أن فى الكتب التى قرأها يونس هذا السحر الذى يدفعه إلى مثل هذا الجنون ! وحمدت الله على تحول عم عبد العليم إلى بيع الحلوى والسجائر والمياه الغازية والكاسيت ، وإلا ماذا كان يمكن أن يفعل يونس لو قرأ المزيد من الكتب التى تعكر عليه صفو حياته ، أو استطاع أن يكمل

تعليمه ؟! صحيح أنهم يعيشون حياة السخرة والإذلال ، لكن ما باليد حيلة ! قدر وكتب عليهم ! أما هذا المجنون الجالس إلى جوارها والذى تعشقه عشق السمك للماء ، فلا يؤمن إلا بالإرادة ، أما القدر فحجة الضعفاء والعاجزين !

صحت توقعات حورية عندما انتفض يونس واقفا مخاطبا الرعاد :

ـــ لا نعرف يا سعادة البك كيف نشكرك على هذا الشرف الكبير الذى لم نحلم فى يوم من الأيام أن نحظى به !

توقف يونس ليبتلع لعابه الذى جففته الخمر فإذا بالرعاد يطلق نفسا صافيا من أنفه وشفتيه ، ويتأمل خاتمه الماسى قائلا :

ـــ تشكرنى بالنيابة عن الحاضرين كأننى لست واحدا منهم ! إما أن توجه الشكر للجميع لحضورهم فرحك أو تتكلم عن نفسك فقط !

تلاشت أبخرة الخمر فى تلافيف مخه فى حين تشبثت حورية بمسندى المقعد ويونس يقول :

ـــ العفو يا سعادة البك !! العين لا تعلو على الحاجب !! والمياه لا تجرى فى العالى !! فهل يعقل أن تتساوى سعادتك معنا نحن ؟!

ـــ كلنا أبناء آدم وحواء ! لكن الرزق رزق الله يمنحه لمن يشاء من عباده !!

ـــ أشكر لسعادتك هذا التواضع العظيم !! وأنتهز الفرصة لأعبر عن تمنيات أخوتى الصيادين التى نرجو أن تلقى قبولا لدى سعادتك !

ـــ قبل أن أستمع إلى هذه التمنيات ! هل أنابوك عنهم ؟!

ـــ نعم !

— هل هذا صحيح ؟!

ران صمت عميق رهيب كأن السرادق خلا من البشر ، ولم يعد هناك سوى هدير البحر ولطمات أمواجه على الساحل المظلم ! تحول الجالسون إلى تماثيل فى متحف للشمع ! ابتسم الرعاد فى نشوة جارفة وسحب نفسا عميقا من سيجاره ذى الرائحة النفاذة ، وسأل يونس فى تباطؤ ثقيل :

— ما رأيك ؟!

لم يستسلم يونس كعادته :

— السكوت علامة الرضا !

— هذا كلام تقوله للبائعين فى شادر السمك !

لاحظ بعض الشباب حرج يونس المتصاعد ، وحيرة حورية بعينيها الزائغتين بين يونس والرعاد ، فصاح أحدهم وسط الجالسين دون أن ينهض ويبرز بوجهه :

— نعم ! نحن أنابناه !

كان الرعاد على وشك أن يطلب من الشاب أن يقف ويعلن عن اسمه ، لكنه فوجئ بالأصوات تتصاعد من جنبات السرادق وتجمع على أنهم أنابوا يونس فى طلباتهم ، والبسمة المضيئة تعود إلى وجهه والارتياح الطارئ يفترش وجنتى حورية وشفتيها المشدودتين . استدرك الرعاد الأمر وصاح :

— وهو كذلك .. ما تمنياتكم ؟!

طرد يونس حشرجة اعترضت حلقه :

— نريد نقابة لنا تنظم أعمالنا وشؤوننا .. حتى يسيز العمل بطريقة

خالية من المشاكل وتستريح سعادتك من متاعب الأفراد .. فردا فردا !

نظر عويس إلى الرعاد متشفيا وكأن عينه اليمنى تقول : ألم أقل لك ؟!

لكن الرعاد ابتسم فى صفرة سائلة كشفت عن أنيابه التى غلفت بعضها بالذهب :

ـــ وماذا أيضا ؟!

ـــ كما نريد أن يطبق علينا نظام التأمينات حتى لا يقع لأحدنا ما وقع لمرسى !

ومضت عينا مرسى فى جلسته وسط فرقته على المصطبة التى رصت عليها مقاعد الرعاد ورجاله :

ـــ وماذا أيضا ؟!

ـــ كما نريد ساحة شعبية يمارس فيها الشباب الرياضة .. بدلا من جلستهم فى المقهى للثرثرة مثل العجائز والعوانس !!

انبسطت أسارير الرعاد للمطلب الأخير لكنه عاد إلى تجهمه المتسائل :

ـــ وماذا أيضا ؟!

ـــ لا نطمع فى أكثر من هذا !

استدار الرعاد ليواجه الجالسين دون أن ينظر إلى يونس :

ـــ طلباتكم على العين والرأس .. موضوع الساحة الشعبية أؤيده تماما .. فليس هناك أفضل من الرياضة لشغل أوقات فراغ الشباب .. وسوف أصدر أوامرى فورا لتخصيص الأرض الخلاء خلف المدرسة الابتدائية لهذا المشروع العظيم ! أما بالنسبة للتأمينات الاجتماعية فلا أظن أنها ستكون أقدر منى فى مساعدتكم فى حالات المرض أو العجز أو الوفاة ..

لا حكم الله بها عليكم .. ولا داعى لأذكركم بما فعلته من أجل زميلكم مرسى فى المستشفى فأنا لا أحب المن على أحد !! ولولا ذلك لما قام بالرقص والغناء وإحياء هذه الليلة السعيدة علينا كلنا !! وذلك بالإضافة طبعا إلى المبالغ التى ستخصم من مرتباتكم لتوريدها إلى التأمينات ! رأيتم بأنفسكم كيف أجبكم وأحميكم وأساعدكم بكل حنان الأب ! فإذا كنا أسرة متحابة بهذا الشكل الرائع فما لزوم النقابة التى لا تعنى سوى إثارة الشكوك وسوء الظنون والتكتلات التى لن تؤدى إلا إلى صراعات نحن فى غنى عنها ؟!! وعلى كل حال فالرأى الأخير لكم !!

صمت الرعاد ليلتقط أنفاسه المبهورة بضرباته القاضية التى وجهها فى حنكة إلى يونس الذى فتح فمه :

ـــ بخصوص النقابة يا سعادة البك ....

قاطعه الرعاد فى عنف وهو ينظر مبتسما إلى الجمهور :

ـــ الكلام ليس حكرا عليك ! أريد أن أسمع آراء الأحباب !! لا أحب أى حاجز يقف حائلا بينهم وبينى !! فإذا لم يستمع الأب إلى أبنائه فمن يستمع إليهم ؟!

جلس يونس وابتسامة غامضة تحتها حورية على وجهه ! فهو ليس من السذاجة بحيث يتوقع استجابة الرعاد لهذه المطالب ولكن يكفيه فخرا أنه أبلغها مباشرة وعلنا على رءوس الأشهاد فى ليلة عرسه ! كادت الابتسامة الغامضة أن تقتل عويس الذى فتح فمه لكن الرعاد قال وهو ينهض :

ـــ فى هذه الحالة .. السكوت علامة الرضا كما يقول أخوكم يونس ! أستأذن الآن .. كنت أود أن أقضى الليلة كلها معكم .. لكن ما باليد

حيلة ! فلدى من المشاغل والمشاكل ما يلزمنى السهر حتى الفجر .. كل هذا من أجل راحتكم !!

هجم الرعاد على يونس الذى نهض ليتلقى أحضانه العنيفة ، وقبلاته الحارة على وجنتيه ، ثم شد على يد حورية فى حرارة بالغة ، ثم رفع ذراعيه محييا الواقفين على الصفين ، وخلفه موكبه بقيادة عويس ، ولم ينس أن يسلم على عم عبد العليم باليد التى قبلها مرة أخرى وسط نظرات الاستنكار المكتوم ! أسرع يونس فى أعقابه حتى باب السيارة السوداء الفارهة ليودع ضيفه الكبير الذى رفع يده محييا خلف الزجاج الداكن الذى يخفى أكثر مما يكشف !

انطلق موكب السيارات الفارهة من الزقاق الضيق صوب الطريق الساحلى المؤدى إلى القصر العالى وعويس يقول للرعاد :

ــ يريد الملعون ساحة شعبية حتى يتدرب الأولاد على العنف والضرب ظنا منه أنهم سيتفوقون على رجالنا فى يوم من الأيام ؟!

ضحك الرعاد ضحكة مقتضبة :

ــ هذا إذا استطاعت الأنيميا يوما أن تهزم القوة والجبروت !!

ــ ستكون الساحة تحت إشرافى .. ومنها سأحصل على كل الأخبار أول بأول !!

ــ الأفكار قبل الأخبار يا عويس !

ــ أمرك يا ملك !

وفى نهاية الطريق المستسلم لرذاذ الأمواج بدا القصر شامخا فوق ربوته العالية ، وخلفه تهادت السحب الشفافة لتعلن عن مجىء القمر الذى بدا شاحبا عاجزا عن بلوغ قمم الأمواج بأشعته الفضية !

٥

ـــ إياك أن تظن فى نفسك القدرة على مواصلة تحدى الرعاد ورجاله ! لقد أصبحت الآن مسئولا عن أسرة .. ويبدو أن ابنك فى طريقه إلينا !

كانت حورية مسترخية فى فراشها فى قميص نومها الأبيض الشفاف الذى يحيط جسدها البرونزى بهالات من رواء ساخن أدمنه يونس بعينيه وأصابعه ، فى حين كان يونس منهمكا فى ارتداء جلبابه اللبنى الذى يناسب طقس أواخر مايو . ابتسم وهو يشحن عينيه بالتيار المشع من جسدها الجميل :

ـــ إذا أصبحنا يدا واحدة فلن تقوم للرعاد قائمة .. فنحن أغلبية لكن متفرقين .. ولن أطمئن على مستقبل ابنى إلا إذا اتحدنا !!

ـــ وهل سيسعد ابنك عندما يصيبك مكروه ؟!

ـــ نحن نعيش الخطر فى كل لحظة ! ولن يرحمنا إذا حاولنا الهروب منه ! ومن الأفضل مواجهته فربما فزنا باحترامه كشجعان ! والمثل يقول : ادينى عمر وارمينى البحر !

تململت حورية فى رقدتها المسترخية ولكزته فى ظهره عندما جلس على حافة الفراش لارتداء الحذاء :

ـــ أشد ما يثير غيظى منك هذا الكلام الذى لا أفهمه ولا أحبه !!

تظاهر بالانحناء كشيخ طاعن فى السن وأمسك بذقنه كما لو كانت لحيته

وهمس بنبرات مبحوحة مرتعشة :

ــ عندما تشيخين مثلى سوف تفهمين حكمتى العميقة !

لكزته فى ظهره بعنف أشد حتى صاح متأوها وهى تنهره :

ــ لن أحتمل يا يونس أن أعيش وحدى فى هذه الشقة مرة أخرى !! لقد فقدت أبى وأخى فى البحر ورحلت أمى بعدهما حزنا عليهما .. أما فقدك فلا يعنى سوى موتى !!

استدار ليحتويها تماما ، وينهال بالقبلات الخاطفة على وجهها وعنقها وثدييها ، والهمسات اللاهثة المتسائلة فى عشق متدفق :

ــ أتحبيننى إلى هذا الحد ؟!

ــ ما هذا السؤال السخيف ؟!

ثم دفعته بيدها فى رقة حتى أجلسته وهى تضيف :

ــ ألم تكن متعجلا للذهاب إلى الساحة الشعبية ؟! ماذا جرى ؟!

ــ هل يعقل أن أترك لكماتك اللذيذة الناعمة لأشاهد المصارعة والملاكمة الخشنة الكئيبة ؟!

ــ وهل تظن أن أغراضك من الساحة خافية على الرعاد وعويس ؟!

ــ لا .. طبعا .. لكن كل همى أن يستشعروا قدرتهم على الدفاع عن النفس على أقل تقدير !!

ــ رجال الرعاد يأكلون عشرة أمثال ما يأكله أصدقاؤك !

ــ عموما الرياضة فى الساحة خير من جلسة المقهى والمكيفات .. خاصة أن رجال الرعاد شرعوا فى تدميرنا بطريقة خبيثة سامة ؟!

ــ أتقصد المخدرات والأقراص إياها ؟!

ـــ طبعا !

ـــ وهل يمكن تحدى أخطبوط بهذا الشكل المرعب ؟!

ـــ التحدى يمكن أن يؤدى إلى نتيجة إن عاجلا أو آجلا ! أما الاستسلام فلا يعنى سوى الموت البطىء بصفة مؤكدة !

ـــ مهما تناقشت معك فلن أنحت فى الصخرة التى وضعها الله فى رأسك !! وكل ما أطلبه من الله أن يحميك من أجلنا نحن الاثنين : ابنك وأنا !! فليس لنا فى هذه الدنيا سواك !

قبلها فى وجنتها قبلة سريعة :

ـــ لا يمكن أن يتخلى الله عن العاملين من أجل الخير !! وإلا لكانت الدنيا قد اندثرت منذ زمن بعيد !

نهض واقفا وهو يصلح من شأن جلبابه النظيف المعطر :

ـــ سأمر على أمى وأختى قبل الساحة .. فربما كانا فى حاجة لى !

ـــ لولا انشغالى اليوم لقمت بزيارتهما !

ـــ سأهديهما سلامك ! هل ترغبين فى شىء أحضره لك ؟!

انحنى ليقبلها مرة أخرى فهمست :

ـــ سلامتك يا روحى !

خرج ليستقبل شمس ما قبل الغروب ، بأسلاكها الذهبية الرقيقة الناعمة السارية فى الهواء المنعش المتجدد بملوحة البحر الذى تضائل هديره بعض الشىء . ملأ رئتيه ثم أطلق زفيرا طويلا وهو يثبت الطاقية البيضاء على رأسه ، ويطأ الرمال الناعمة تحت حذائه بقدمين ثابتتين بين البيوت ذات الأحجار الشهباء ويحيى من تصادف وجوده فى نافذة أو عند مدخل بيته

أو فى الزقاق الضيق حتى بلغ بيت أمه التى استقبلته بالأحضان والدموع والسؤال عن حورية ؛ وكذلك أخته التى هجمت بأطفالها ليرسموا حوله دائرة حصار يصعب اختراقها ! ودار الحوار المعتاد حول الرعاد وعويس مع رشفات الشاى الأسود ، وتمنيات الأم الحارة الملحة بأن ينأى ابنها عن الطريق الخطر الذى سار فيه أبوه وأخوه بلا عودة !

لم يحاول يونس أن يدخل معهما فى جدل عقيم بل أشاع فى قلبيهما الطمأنينة بأن كل شيء على ما يرام بعد أن أصبحت الساحة الشعبية الملتقى الرياضى الرحب للجميع بعيدا عن القيل والقال . وبمجرد انتهائه من شرب الشاى نهض ليستأذن ويتخلص منهم بصعوبة بالغة ! خرج إلى الطريق وأطفال أخته يحاولون اللحاق به لكنه نهرهم بشدة دفعتهم إلى العودة أدراجهم إلى البيت بخيبة أمل لم تتلاش من عيونهم السوداء الصغيرة اللامعة !

بلغ مدخل الساحة الشعبية فجاءه مرسى يخبره بأن عويس سأل عنه وهو فى انتظاره بمكتبه . لمح يونس كماً ضخما من الشباك ، بعضه فى أحد الأركان ، والبعض الآخر معلق على الأسوار الخشبية ، فسأل مرسى :

ــ من الذى أحضر هذه الشباك هنا ؟!

ــ كلاب البحر !

ــ أشم فى الهواء رائحة غريبة !

ــ وأنا أيضا !

ــ سنرى !

قالها يونس وهو يتوجه إلى مكتب عويس محييا فى طريقه أصدقائه السعداء

بممارسة الكاراتيه والملاكمة وحمل الأثقال وكرة القدم فى الهواء الطلق .
دخل المكتب وقبل أن يلقى السلام عاجله عويس بكلماته الآمرة من بين شاربه الأشعث ولحيته الكثة :

ـــ نظرا لمهارتك فى غسل الغزل وصبغه .. اجمع زملاءك الشبان وعلمهم الغسيل والصباغة .. أريد الغزل كله جاهزا قبل الصيد القادم ! وكلها رياضة مفيدة !

لم يجلس يونس دون دعوة مواصلا وقفته العنيدة :

ـــ وهل سيحصلون على المكافأة اللازمة للعملية ؟!

استدار وهو يسحب نفسا عميقا من النارجيلة النحاسية اللامعة خلف المكتب وعينه الزجاجية تومض بإحساس ميت :

ـــ لا أستطيع أن أحرم العجائز من المكافأة التى اعتادوا عليها !! والبركة الآن فى الشباب .. على الأقل سيتلقون العلم مجانا !

تصاعد الدم ساخنا فى تلافيف رأس يونس لكنه واصل صموده العنيد الهادىء :

ـــ لم تجر سيرة العجائز على لسانى .. كل ما طلبته أجر زملائى !!

أطلق عويس نفسا طويلا معبقا برائحة شرقية مخدرة :

ـــ لن أدفع أجرا لهم ولكم .. يكفى أننا أقمنا لكم هذه الساحة دون مليم واحد من جيوبكم !!

ـــ وهل وجدتم فى جيوبنا مليما واحدا لتأخذوه ؟!

انتفض عويس واقفا بدقة متحدية من ساقه الخشبية :

ـــ افعل ما أمرتك به !

بنفس الهدوء المثير المستفز قال يونس :

ـــ مرهم أنت ! فأنا لا أستطيع أن أجبرهم على عمل دون مقابل !

ـــ ألست زعيمهم ؟! ليست هناك زعامة بدون مسئولية !!

ـــ ومن قال إننى زعيمهم ؟! لست سوى واحد منهم !!

ـــ ويوم طالبت بالنقابة والتأمينات والساحة ؟! هل طالبت بصفتك زعيما أو عريسا أو مجرد واحد منهم ؟!

ـــ لم أفعل سوى ما طلبوه منى !

دار عويس حول المكتب ليهدد يونس ببوادر مواجهة مباشرة :

ـــ ولماذا لا تفعل ما أطلبه منك الآن ؟!

ـــ تحت أمرك إذا حددت لهم أجراً !

ـــ لا تظن أننى عاجز عن إجبارك على تنفيذ ما آمرك به !!

ـــ إنهم أمامك ! قل لهم ما شئت !

ـــ وهو كذلك ! لكننى أحملك مسئولية ما سوف يجرى لو رفضت أن توافق علنا أمامهم على أوامرى لهم !! تفضل أمامى !!

اضطر يونس إلى الخروج وفى أعقابه عويس بدقة ساقه الخشبية ، لكنه سرعان ما تراجع إلى خلفه قائلا :

ـــ العين لا تعلو على الحاجب !

كادت عينه الزجاجية أن تقفز من محجرها وهو يرمقه فى غيظ ، ويتقدم إلى الساحة الرملية مناديا على الصيادين الذين سرعان ما تركوا ألعابهم وتجمعوا لاهثين فيما يشبه الصفين المتعرجين أمامه ! تبادل يونس مع مرسى نظرات مشحونة بالخواطر المتلاطمة كأمواج البحر القريب التى تضرب الساحل بلطمات عنيفة ! صاح عويس بصوته الأجش الأجوف الذى

غطى على الهدير الأزرق :

ـــ اتفقت مع يونس على أن تبدءوا من الآن غسيل الغزل وصباغته حتى يكون جاهزا قبل الصيد القادم !! هيا إلى العمل !!

نظر الشبان فى دهشة متسائلة إلى يونس الذى تردد قليلا لكنه سرعان ما قال بنفس الاتزان :

ـــ لكن الشرط نور !! رفض تحديد أى أجر لكم !

صاح مرسى الذى كان فى مقدمتهم :

ـــ نريد أن نستنير برأيك يا يونس !

ـــ رأيى معروف للجميع ! عمل بدون أجر سخرة !

استدار عويس حوله فى حنق خانق فإذا بالكثبان الرملية المتاخمة لسور الساحة وقد انشقت عن رجال الرعاد بعضلاتهم الحجرية ، وملامحهم الصخرية ، وهراواتهم الثقيلة ليلتفوا حول عويس الذى صرخ فى الصيادين بشاربه المهتز ولحيته المرتعشة :

ـــ رأيه هذا تحت نعلى ! ستفعلون ما آمركم به !

استدار يونس ليترك المكان احتجاجا صامتا على ما قاله عويس ، لكن سرعان ما اعترضته ساق أحد رجال الرعاد فسقط بوجهه مدفونا فى الرمال وعويس يصيح فى الصيادين المذهولين :

ـــ سنريكم أننا كلاب البحر يا كلاب يا أولاد الكلاب !!

فى لحظة تحولت الساحة إلى حلبة للملاكمة والمصارعة والكاراتيه ، فى حين جرى عويس بعرج ساقه الخشبية ليحتمى بمكتبه ، ويتابع المعركة من نافذته ! استبسل الصيادون لأول مرة فى حياتهم وهم يقاومون جبروت

كلاب البحر كما يحلو لهم أن يسمونهم ، لكن العضلات الحجرية والهراوات الثقيلة كانت أشد وطأة من مهارتهم الرياضية التى لم يمض عليها أكثر من شهر! ضربة هنا ولكمة هناك ، صرخة هنا وركلة هناك ، صفعة هنا وقفزة هناك ؛ وتحولت الساحة إلى معسكر للعضلات والهراوات وآخر للأنات والآهات ، ومع ذلك استمات الصيادون لأول مرة فى حياتهم دفاعا عن أنفسهم وهم يرون يونس وقد تحول إلى مارد جبار بقامته الممشوقة وضرباته ذات اليمين واليسار برغم الهراوات والركلات المنهالة عليه من كلاب البحر ! لم يكن يونس مخطئا عندما أسماهم كلاب البحر التى تتميز بالفم المستطيل الكبير ذى الأسنان القوية المدببة المتماسكة ذات الأطراف الحادة المتباعدة ، والجسم المستطيل ، والبطن المستدير . وهى فى العادة متوحشة من آكلات اللحوم ، وأنيابها القوية مثل أسنان الوحش ، ظاهرة للعيان عندما يكون الفم مغلقا !

كان عويس حريصا على تذكير رجاله بلقبهم حتى يضربوا بوحشية كلاب البحر ! وبالفعل تساقط الشبان كالأسماك عندما تخرج من الماء وتلقى فى ثلاجة المركب ، منهكى القوى ، لاهثى الأنفاس ، بعضهم مضرج فى دمائه النازفة من أنفه وفمه ، والبعض الآخر ممزق الثياب على جروح وكدمات ! أما يونس فكان كل هؤلاء فى شخص واحد ومع ذلك حاول التماسك والجلوس ليسأل عن أقرانه المتناثرين فى الساحة !

نفض الرجال أيديهم وجذوة الانتصار فى أعينهم تمتزج بمسحة الإجهاد على وجوههم ، ولمسة التشفى فى أفواههم المفتوحة وأسنانهم القوية المدببة المتماسكة ذات الأطراف الحادة المتباعدة ! ابتلعهم مكتب الرعاد الذى نظر

من نافذته كقائد مظفر فى معركة كان يعرف نتيجتها مسبقا ، وقال بنبرات ينهمر منها التشفى والاستفزاز والعنجهية بين الشارب واللحية :

— لقد حملتك يا يونس مسئولية ما سوف يقع لأصحابك ! لكنك ضربت بكلامى عرض الحائط ! فما يهمك هو زعامتك لهم ! ولو كنت تخاف عليهم كما تدعى لما تصرفت بهذه العنجهية الفارغة ! فقد كنت أنوى أن أصرف لهم أجرا مجزيا لكننى أردت فقط أن أعرف مدى طاعتهم لى ! والآن نتيجة لتغريرك بهم سأعرف كيف أجبرهم على غسل الغزل وصبْغه وبلا أجر هذه المرة حتى يعرفوا عاقبة من يترك قياده لك !! ولقد أعذر من أنذر !

دوت النافذة مصفقة عند إغلاقها وسمع يونس والجرحى صوت محركات السيارات خارج الساحة وهى تنطلق بعيدا بكلاب البحر ! ران صمت عميق امتزج بهدير البحر وفحيحه ولطمات أمواجه على الساحل ! تماسك يونس حتى جلس وهو يلملم جراحه لاهثا بصوت مسموع :

— لم يحتملوا أن يكون لنا أى كيان خاص بنا !! ومع كل ما جرى .. وقفنا منهم لأول مرة موقف الند للند !

حاول مرسى إشاعة روح الدعابة وهو ينهض ليسير بينهم فى عرج خفيف وكدمة زرقاء تحت عينه اليمنى :

— كانت أجمل علقة ذقتها فى حياتى ! فعلى الأقل أثبتنا لهم قدرتنا على الدفاع عن أنفسنا وعن حياتنا الجديدة الرافضة للذل والخنوع !

تحامل يونس على نفسه ونهض واقفا :

— نحن نعلم أن الطريق طويل وصعب وشاق وخطر .. لكن لا بد من

السير فيه حتى نهايته ! فلا بديل له !

نهض صياد آخر وهو يلملم سرواله الممزق حتى يخفى عورته :

ـــ لن نسير فى طريق لمجرد أن نلقى حتفنا فى النهاية بلا نتيجة !

عاد العزم الساخن إلى نبرات يونس المنهكة عندما شعر بالإسفين الذى دقه عويس بينه وبين زملائه يسرى فى بعضهم كالسهم البطىء فصاح متهدجا :

ـــ يكفى أن أبناءنا وأحفادنا سيقولون يوما إننا رفضنا الذل والعبودية وقدمنا حياتنا فداء للكرامة والكبرياء !

صاح صياد ثالث يحاول التملص من كومة من الرمال التى أمسكت بتلابيبه :

ـــ لن أتزوج ولن أنجب حتى يقول عنى أبنائى وأحفادى أى شىء ! فسوف نموت وكأننا لم نوجد أبدا على ظهر هذه الدنيا !

كان يونس على وشك أن يرد لكن مرسى كان أسرع منه :

ـــ ليس من الضرورى أبناؤك وأحفادك أنت !!

أشاح الصياد بوجهه كم لم يفهم ما يقصده مرسى فى حين قال رابع :

ـــ أنا مع يونس ! لعنة الله على حياة نتجرع فيها الهوان كل لحظة !

حمى وطيس الحوار فنسى الصيادون جراحهم وأوجاعهم ، وأحدهم يمسك بكتفه قائلا فى ألم متسائل :

ـــ ألا يمكن أن نشكوهم للشرطة ؟! وكلنا شهود على ما جرى !

أجابه يونس فى رنة ألم ساخر :

ـــ هذا هو الطريق الصحيح الذى يجب أن نسلكه ! لكن هذا العمل إذا

كان أجود أصناف السمك من نصيب الشرطة ومجانا ؟! وشعار الرعاد كما تعلمون : اطعم الفم تستحى العين ! أنسيتم الحفل الذى أقامه لاستقبال المحافظ وصرف عليه ما يكفينا كلنا لنعيش فى رفاهية سنوات ؟! فى زمننا الكريه هذا .. من يملك المال يملك الرقاب !!

صمت يونس ليسترد أنفاسه الضائعة من حنايا صدره . فصاح صياد قادم من ركن قصى متسائلا فى تهكم لم يخفه :

— ونحن ماذا نملك حتى نحارب من يملك كل شىء .. حتى الرقاب ؟!

أجابه مرسى وقد تلاشت روح الدعابة من نبراته الخائرة :

— نحن أقوياء .. لأننا لا نملك ما نخاف عليه !

أضاف يونس مستعيدا حماسه :

— يرى الرعاد أننا بلا ثمن على الإطلاق .. ولذلك لا يسعى لشرائنا ! ولذلك فنحن نملك إرادتنا من حيث لا يعلم !

تصاعدت الأحاديث ، وتشابكت الآراء ، وتصارعت الأفكار لتجسد الحيرة والتمزق بين إيمانهم اليائس ، وقلقهم من سطوة الرعاد الكاسحة العارمة :

— نحن نتكلم كثيرا لأننا لا نجد ما نفعله !

— إذا كنا قد قررنا محاربتهم .. فمن الأفضل أن ننتحر ونريح أنفسنا من الآن !

— قبل أن أنتحر .. سأقتل أكبر عدد منهم ! حتى يكون موتى بفائدة !

— [illegible] لأننا سبب رفاهيتهم !

— يمك[illegible] يأتوا بغيرنا .. فمن خلقنا خلق غيرنا !

— إذا ضربنا المثل لغيرنا فيمكن أن تصبح حياتهم مستحيلة !

— الشقاء قدر كتب علينا منذ مولدنا !

— العدالة الإلـٰهية لا ترضى بما يجرى !

— فلنصل لله حتى تنقشع الغمة !

— اسع يا عبد وأنا أسعى معك !

— سعينا كثيرا .. بلا أى أمل !

— ما الخطوة القادمة ؟! هل سنقوم بغسل الغزل وصبغه مجانا ؟!

— لا بد من الانحناء للعاصفة وإلا كسرنا أعناقنا بلا مقابل !! والطريق طويل وفى حاجة إلى فترات راحة .. وأى قتال فى حاجة إلى هدنة !

— وكأنك يا بو زيد ما غزيت !!

— وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا !!

— أتريدون الانتصار الساحق الماحق من أول معركة !

— عشم إبليس فى الجنة !

— هُم إبليس والشياطين أما نحن فنحارب من أجل الحق والخير !

— فليشملنا الله برحمته فلم يعد لنا سواها !

— يا فرحة الرعاد وكلاب البحر إذا جلسنا نندب حظنا كالنسوة العجائز !! هذا هو ما يهدفون إليه تماما ونحن نساعدهم عليه !

— لن يمر ما حدث اليوم على خير !

— الخير لا يعرف طريقه إلينا !

— سنصنع الخير وسنرميه فى البحر !

— ثم يلتقطه الرعاد ويتمتع به مع كلاب البحر !

ــ ثبت أن القوة الجسدية سلاح الذين يأكلون ويتغذون جيدا ! فهى ليست للذين يلتقطون رزقهم يوما بيوم والله أعلم !

كانت الشمس على وشك الغرق عند خط الأفق الأرجوانى على مسطح أزرق داكن فأراد يونس أن يحسم الحوار المحتدم :

ــ لا تنسوا الهراوات واعتمادهم على ذوى الشأن والنفوذ !! ومع ذلك لا زلت أومن بأن التسلح بالوعى قادر على تحقيق أهدافنا فى النهاية مهما بدت بعيدة !!

أضاف مرسى بحماس لا يفتر :

ــ والحمد لله .. لدينا القدوة التى ليست عندهم ! فكل ما يربطهم جميعا هو المصالح المادية المتبادلة التى إذا واجهت عقبات ومنغصات مستمرة فربما انفرطوا فى النهاية مثل حبات العقد !

جر يونس قدميه تجاه البوابة وهو يؤكد للسائرين حوله :

ــ أنا لا أجبر أحدا على الاقتناع بأفكارى .. كما أننى لا أملك القدرة على ذلك .. وكل واحد حر فى أن يفعل صالحه .. فلست زعيما لأحد كما يحاول عويس أن يوقع بينى وبينكم !! فكلنا أبناء وضحايا نفس الظروف السيئة !! لكننى حر أيضا فى أن أسعى لتحقيق ما أومن به حتى لو ضحيت بحياتى من أجله !

كان مرسى السائر إلى يمينه آذانا صاغية فقال :

ــ إنك الآن مسئول عن زوجة وعائلة فى المستقبل إن شاء الله !!

نظر يونس إلى آفاق البحر المترامى خارج الساحة وجذب نفسا عميقا :

ــ خير لحورية أن تعيش أرملة حرة من أن تظل زوجة لرجل ذليل !

لم يصمت مرسى وهو يرى الدهشة متجمدة فى العيون الكسيرة :

ـــ الترمل فى بلدنا أبشع أنواع الذل !! اسأل أمى ماذا فعلت كى أكبر وأصبح رجل البيت بعد أبى !! اسألها كيف سهرت الليالى على مصباح الغاز لترتق الغزل مقابل ملاليم حتى كل بصرها وتقوس ظهرها ؟!

ربت يونس على كتف مرسى ودفء الصداقة الحانية يتدفق حوله من العيون المحيطة به :

ـــ وهو كذلك .. سنشرع غدا فى غسل الغزل وصبغه !! هذا إذا لم يكن الرعاد قد قرر طردى من العمل !!

تناثرت التعليقات من الأفواه الدامية ، وتداخلت الكلمات فى الشفاه المتورمة دون رابط :

ـــ لن نعمل بدونك !!

ـــ ما يجرى لك يمكن أن يجرى لأى واحد منا !

ـــ قد يستعين بالعجائز فى الغسيل والصباغة !

ـــ هل تصدق أنه سيمنحهم أجرهم ؟!

ـــ إنه يريد أن يقتطع كل مليم ممكن من جلودهم وجلودنا !

ـــ حتى نظل تحت رحمته إلى الأبد !

ـــ سنحنى رأسنا للعاصفة !

ـــ لكن إذا هبت مرة أخرى بهذا العنف .. وستهب قطعا .. فأفضل لنا أن نواجهها حتى لو اقتلعتنا من جذورها !!

ـــ نحن الجذور التى لا يمكن اقتلاعها !

ـــ التطرف نار لا بد أن تأكل صاحبها فى النهاية !

ـــ المطالبة بالحق ليست تطرفا بأى حال من الأحوال !

ـــ نريد فقط المقابل العادل لعرقنا !

ـــ لا نعرف ما سوف تحمله الأيام القادمة !

ـــ مستقبلنا مثل هذا البحر .. غامض ومخيف وخطير وغدار ومظلم برغم أن أملنا وحياتنا فيه !

ـــ الظلام والنور سنة الحياة !

كانت الشمس قد لفظت أنفاسها غرقا عند الأفق ، وشرعت الظلمات فى نشر أجنحتها على السطح الداكن المتماوج ، والأقدام الكليلة تغوص فى الزمال الرطبة لتزيل آثار إطارات سيارات كلاب البحر ، لكنها انحرفت يسارا تجاه الزقاق الرئيسى للبلد ، وصوت مرسى يتمتم مع همسات الصحبة التى امتزجت بهدير البحر لتردد معه :

ـــ يا زارعين الـــود هو الـــود سجـــــره جل
ولا سواجى الــوداد نزحت ولا ماهـــا جل
يوم بنشرب عسل وأيـــــــــام بنشرب خل
ويـوم ننـام ع الفـراش وأيـام ننـام فى الطـــل
وأيـام حكـمت على ولـــد الظنايـــا تنـــدل !

٦

ـــ ألم أقل لك .. ليس لنا عيش فى هذا البلد ؟! طالما أنك مصر على هذه الأفكار التى قضت على أبيك وأبى .. وعلى أخيك وأخى ؟!

كان صدر حورية البض الناهد يعلو ويهبط مع أنفاس ساخنة لاهثة وهى تعيد لف الضمادة العريضة حول كتف زوجها الذى تأملها فى حيرة وقلق، فى حنان وعطف ، بحث عن كلمات مقنعة بعد أن نجح عويس فى طرده من الخدمة كما توقع ! قال وهو يجرى بيده الحانية على خصلاتها السوداء الناعمة اللامعة :

ـــ الرزق رزق الله !

ـــ ونعم بالله ! لكننا لا نملك ما نأكله بعد أسبوع !! وأنت لا تعرف مهنة غير الصيد !

ـــ لن أعدم وسيلة ! سآخذ قاربى الصغير لأصطاد به !

ـــ وكيف ستبيع السمك ؟! لن تجرؤ علىَ دخول الشادر !!

ـــ سأبيعه بنفسى على قارعة الطريق !

ـــ لن تتركك كلاب البحر فى سلام !

ـــ سنأكله !

ـــ إلى متى ستصر على نطح الصخر ؟! لن يدمر عنادك أحدا سوانا !!

ـــ هل أذهب إلى الرعاد وأقبل حذاءه طالبا العفو والمغفرة ؟!

ــ لم أعد أعرف كيف أكلمك أو أتعامل معك !! إما أن تتحدى الرعاد علنا أو تقبل حذاءه ؟!

ابتسم وهو يضع الصديرى فوق الضمادة مقبلا يدها :

ــ سأفعل كل ما تأمرينى به !

ــ تبدو سعيدا كأنك لم تفقد عملك ؟! ستصيبينى بالجنون إن آجلا أو عاجلا !!

نهض يونس ليجلس على الصندوق المواجه للفراش هربا من مطاردتها الملحة له ، لكنها سرعان ما التصقت به واحتوته بذراعيها كطفل وهو يحاول تغيير الموضوع :

ــ لماذا لا نتخلص من هذا الصندوق الذى تضيق به الغرفة ؟!

ــ أنت تعرف أنه صندوق أمى ولا يمكن أن أفرط فيه أبدا .. كما أننى أحتفظ فيه الآن بكتبك !

ــ آه !! الكتب التى لا تحتملين وجودها فى البيت !

ــ العلم نور ! لكننى لم أحصل من كتبك إلا على وجع الدماغ ؟!

ــ عموما فأنا قرأتها كلها .. باستثناء كتاب واحد عن غاندى !!

لكزته فى كتفه دون أن تدرى ، فأمسك بالضمادة وتأوه ! أسرعت إلى احتضانه وهى تربت على ظهره فى حنان دافق من وميض عينيها الواسعتين السوداوين :

ــ آسفة يا حبيبى !! إصرارك على تغيير الموضوع استفزنى !!

فتح فاه لكن الكلمات لم تخرج منه ، فقد كانت هناك دقات متتابعة متصاعدة على الباب ودهشة فى عينى حورية المتسائلة :

ـــ من هذا ؟! ولماذا يدق بهذه العصبية ؟!

أجابها بهدوء باسم فى عينيه المتورمتين وشاربه الكث :

ـــ ولماذا الأسئلة والإجابة على الباب ؟!

نهض يونس من على الصندوق الأخضر سائرا فى الممر الضيق المؤدى إلى الباب الخشبى المهتز تحت دقات اليد الحديدية ليفتحه ويفاجأ بمرسى يقف لاهثا بضمادة حول جبينه ورأسه :

ـــ هيا بنا !! الكل فى انتظارك !

لم يفهم يونس شيئا فشد يد مرسى بشدة إلى الداخل :

ـــ أدخل أولا !

انقاد مرسى إلى الممر حيث جلس مع يونس على مقعدين من خشب البلوط القديم :

ـــ ذهبنا اليوم إلى الساحة وانتظرناك لإيماننا أن تكون حكاية طردك من الخدمة مجرد شائعة كاذبة .. لكن بدلا منك جاء عويس وكلاب البحر وأعلن أنك لن تطأ الساحة أو المراكب مرة أخرى ، ثم قام الكلاب بتوزيع صفائح محلول الخشيبة وكبريتات النحاس والنشادر ومواقد الغاز القوية والمياه العذبة لزوم الغسيل والصباغة .. لكننا رفضنا بلسان واحد بحجة أننا لا نجيد شيئا بدون إرشادك .. فصرخ عويس مهددا :

ـــ ليست هذه حجة .. سأحضر لكم عم عبد الرحمن أو أبا العباس .. عليهم التوجيه وعليكم التنفيذ !

أسقط فى يدنا ، واحتار بعضنا فى الرد ، لكن سرعان ما قلنا بألسنة متضاربة ودون تفكير إننا لن نعمل إلا مع يونس البرهومى ! تقدم كلاب

البحر فى حركات تهديد بالهراوات والعصى لكننا استمرأنا الصمود فلم يرمش لنا جفن ! أمرهم عويس بالتراجع ثم صرخ فينا :

ـــ هل تستطيعون تحمل نتيجة فعلتكم هذه ؟!

ران صمت عميق رهيب ، كان أبلغ رد زاخر بالتحدى الحقيقى . فصاح عويس بصوته الأجش وهو يدق الرمال بساقه الخشبية :

ـــ ذنبكم على جنبكم .. سأترك الأمر له ! فأنتم لا تعرفون كم سعيت لديه لحمايتكم من عقابه وعذابه !

كادت عينه الزجاجية أن تقفز وهو يتركنا إلى مكتبه ليخاطب سيده بالتليفون ! لم نعرف بالطبع ما دار من حديث لكنه عاد بعد دقائق وقد تلاشى زهوه قائلا فى صوت كسير :

ـــ فليذهب أحدكم ليخبر يونس بأنه يريد أن يراه !!

سرت همهمات بين الصيادين امتزج فيها الفرح بالقلق بالخوف عليك ، وتساءل بعضهم عن السر فى هذا التحول المفاجئ لكنه ألقمهم حجرا :

ـــ إذا كان يرفض اللقاء فيمكننى أن أخبره بهذا حالا !

فلم أملك سوى أن أسابق الريح برغم ساقى العرجاء حتى أخبرك بما جرى ! هيه.. ماذا تنوى أن تفعل ؟!

استجمع يونس شتات أفكاره ثم همس فى هدوء :

ـــ يبدو أننا لا نملك أى خيار فى الخطوات التى كتبت علينا !! سأذهب للقائه بطبيعة الحال !

طفحت بوادر الخوف وطلائع القلق على نبرات مرسى :

ـــ كن حريصا يا يونس ! فأنت ذاهب إلى الثعبان فى جحره !

— لا تقلق !! فهو ليس من السذاجة بحيث يرتكب أية حماقة فى لقاء يشهده البلد كله !

دخلت حورية التى يبدو عليها أنها كانت تتصنت على الحوار وقد ارتدت رداء أخضر طويلا تاركة ضفيرتيها مسترسلتين حتى منتصف ظهرها ، وبين يديها صينية زجاجية عليها كوبان من الشاى الأسود الساخن . انحنت أمام مرسى الذى أمسك بالكوب فى حياء شديد وهى تقول هامسة :

— أهلا يا مرسى !! خطوة عزيزة !!

— أعز الله مقدارك !!

تناول يونس كوبه بدوره وكلمات حورية تخترق أذنيه :

— هذا الرجل .. ما له وما لك ؟!

ابتسم فى تخابث طفولى :

— من ؟! مرسى ؟!

— تعرف تماما من أقصد !

— وهل تعتقدين أننى أجرؤ على رفض لقاء طلبه الرعاد بنفسه ؟! هيا بنا يا مرسى !!

انتهى مرسى من تجرع الشاى ولحقه يونس الذى لم يكمله ، وكلمات حورية ترن فى أذنيه :

— ربنا معك ! ليس لنا سند سواه !

خرجا إلى الزقاق الرملى وحورية تطل عليهما من وراء الباب الموارب حتى اختفيا عن المنحنى . كان الصمت بينهماصاخبا بهدير الأمواج وشتى الانفعالات حتى قطعه يونس :

ـــ هل تعتقد أن الرعاد تراجع بعد صمودنا الأخير ؟! أم أنه يريد أن يهددنى بصفة قاطعة ونهائية ؟! أم أنها مناورة جديدة من مناوراته التى لا تنتهى ؟!

ـــ كل شيء جائز مع هذا الأخطبوط ! سأذهب معك وسأنتظرك عند باب السراى !!

ـــ لا تخف !! أغلب الظن أنه سيحاول سلاح الإغراء مرة أخرى !! كما أن الحراس لن يسمحوا لك بالاقتراب من السراى !!

بلغا الطريق الساحلى المؤدى إلى القصر الجاثم على الربوة الصخرية العالية . توقف يونس قائلا لمرسى فى حزم :

ـــ عد إلى الزملاء !! وسأوافيكم بالأخبار بمجرد انتهاء اللقاء !

مد مرسى يده بالسلام فى تردد برز فى عينيه الحمراوين المنهكتين وأشاح بوجهه بعيدا ليخفى انفعاله ثم عاد أدراجه . استأنف يونس المسير وقد شغل نفسه بالأمواج التى تفترش الساحل ثم تعود لتنحسر عنه بلا كلل ، وبقوارب الصيد الصغيرة التى تبحث عن رزقها فى المياه الضحلة فى موسم عسير ! مر بقاربه الصغير المشدود بسلسلة صدئة إلى خازوق حديدى تآكل تحت وطأة الطحالب الخضراء الزلقة ، وتذكر حديثه مع حورية وإصراره على الصيد به لو سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ ! فالبحر ملك للجميع وكذلك الشمس والهواء وغيرها من نعم الله !

استيقظ من خواطره المتلاطمة على سخونة الأسفلت تحت قدميه وقد اقترب من القصر الشامخ . أوقفه الحراس وقاموا بتفتيشه تفتيشا دقيقا برغم احتجاجه على أساس أن الرعاد هو الذى طلب اللقاء ، وخيرا سمحوا له

بالدخول . صعد السلم المغطى بالبساط الأحمر حيث وجد عويس عند قمته وهو يشير إليه بعكازه إلى الباب الزجاجى الداكن بلهجة آمرة حانقة :

ـــ ادخل !

كاد رأس يونس أن يصطدم بسمكة الرعاد المحنطة المعلقة على الجدار المغطى بالورق الذهبى وهو يدلف من الباب بالصديرى الفضى والسروال الأبيض معتد الخطوة ، شامخ الرأس حتى وقف أمام الرعاد :

ـــ سلامه عليكم !

مد إليه الرعاد يده فسلم عليه دون أن ينحنى ! بحث حوله عن مقعد فلم يجد سوى ذلك الذى تمددت عليه القطة الرمادية السمينة بعينين ناعستين طفر منهما الشبع ! اضطر إلى الانتظار واقفا والرعاد يواصل إطلاق دخان سيجاره النفاذ من أنفه وفمه ، وقد وضع يده على كرشه المنتفخ متأملا خاتمه الماسى المتألق فى ضوء القرص الذهبى الذى افترش زرقة البحر المتمسح بأعتاب شرفته ! جرت أصابعه الغليظة على شاربه الكث ثم صلعته اللامعة ، لكن جلسته فى المقعد الوثير وحركة قدميه فى الحذاء الأسود اللامع وشت بتوتر خفى منح يونس مزيدا من الثقة بنفسه فظل صامتا هو أيضا حتى لا يوحى إليه بأن السكون المفتعل قد نجح فى هزه وتعريته من الداخل ! اضطر الرعاد أخيرا أن يقول بهمس كالفحيح :

ـــ لا أخفى عليك يا يونس .. فقد صعقت عندما بلغنى ما فعله المجنون عويس !! والمصيبة أن الجميع يظنون أننى مسئول عن حماقاته !!

صمت ليتأمل ما قد ينم عنه وجهه الذى ظل على جموده فصاح فيه :

ـــ لماذا لا تتكلم ؟!

— أوامر سيادتك !

— لقد طلبتك لأتكلم معك كأب وليس لأملى أوامرى عليك !

— وأنا تحت أمرك !

التفت إليه مع ابتسامة غير مريحة افترشت وجهه مع أنفه :

— اعتبر ما قاله عويس كأنه لم يكن !

انفرجت أسارير يونس برغم الخواطر المتضاربة داخله :

— وما موقف عويس أمام الصيادين عندما تهتز صورته ؟!

— هل أوحى إليكم عويس بأن كلمته فوق كلمتى ؟!

لم يخدع يونس نفسه بأن الفرصة قد سنحت للإيقاع بعويس عنده ، بل تذكر نصيحة حورية ومرسى بأن يلتزم الحرص . استند إلى الجدار خلفه :

— لم يحدث شيء من هذا القبيل .. لكن لا بد أن يصعد عويس من انتقامه منا !! فسوف يظن أننا انتصرنا عليه !!

— وهل تظن أنه يعمل لحسابه الخاص ؟! الكلمة كلمتى وإذا لم يعجبه فليغرق نفسه فى أعمق مكان فى أول طلعة للصيد !

— وإذا حاول أن يسلط رجاله علينا مرة أخرى ؟!

— لقد أعطيت أوامرى بأن يظل بابى مفتوحا لك فى أى وقت .. حتى لا يقف عويس حاجزا بينى وبين أبنائى .. وأنا لست على استعداد للتضحية بهم من أجل هذا العويس !

— ونحن لا نطمع فى كرم سيادتك أكثر من هذا !!

سحب الرعاد نفسا عميقا من سيجاره الذى أعاد إشعاله :

— لكن هل تطلقون عليهم لقب « كلاب البحر » بالفعل ؟!

أسبل يونس عينيه تأثرا حتى يكون على مستوى دهاء الرعاد :

ـ نحن نشأنا على احترام كل الناس ! وربما كان هذا مجرد ذريعة للتنكيل المستمر بنا !!

ـ عموما هذا لا يهمنى فى كثير أو قليل ! المهم أن تذهب الآن إلى زملائك وتخبرهم بما قلته لك .. وتبشرهم بأننى قررت رصد مكافأة كبيرة لهم بمجرد الانتهاء من غسيل الغزل وصباغته .. وستقوم أنت بنفسك بتوزيعها عليهم بعد أن اكتشفت بوسائلى الخاصة أن عويس كان يريد الاستئثار بالمكافأة كلها لنفسه !

ثم دق بكفه على جبهته فى ندم حار :

ـ كم كنت ساذجا عندما وضعت ثقتى فيه ؟! كانت ثقة عمياء لأنه حجب عنى آلام أبنائى وآمالهم !!

ألح على وجدان يونس سؤال حول السر فى احتفاظ الرعاد بعويس فى خدمته إذا كان قد جلب له كل هذه الكوارث ، لكنه لم يترك العنان لحسن الظن كى يجرفه مع دهاء هذا الأخطبوط الذى لا تخلو جعبته من المفاجآت التى تدير الرءوس ، وتدخل بها فى متاهات لا رجعة منها ! سأل الرعاد فى تأدب بالغ :

ـ وإذا تعرض لنا عويس ؟!

قال بحزم وهو يدق بقبضته المتكورة على بمسند مقعده المخملى الوثير :

ـ أمرته بألا تطأ قدماه أرض الساحة !

وجد يونس لسانه يلهج بكلمات لم يفكر فيها :

ـ لا حرمنا الله من عطفك ! أية تعليمات أخرى ؟!

قدم الرعاد يده فشد عليها بانحناءة عابرة ووجه الرعاد المبتسم ينم عن أسنانه الصفراء المتباعدة وكلماته الناعمة الهامسة :

ــ تفضل .. وبلغ سلامى الحار لأبنائى الأعزاء !

ــ شكرا .. سلامه عليكم !

واستدار يونس ليخرج من الباب الزجاجى الداكن ، ويوشك على الاصطدام بعويس المرابط خلفه والذى رمقه بنظرات زجاجية ناضحة بكل المعانى المتناقضة التى لا تثير سوى الحيرة والقلق ! لم يتخل يونس عن جموده ، ولم يفتح فمه بحرف بل أسرع قافزا على السلم الحلزونى المغطى بالبساط الأحمر والذى يؤدى بعد خطوات إلى مدخل القصر المفتوح الذى لفظه ليواجه الشمس الساطعة التى تعشى العيون بذهبها المبهر ، وليسرع الخطى صوب الساحة الشعبية !

بمجرد بروز شبحه فى الأفق قفز الصيادون لاستقباله بالأحضان المفتوحة ، وبمجرد دخوله الساحة وسرده عليهم ما جرى مع الرعاد ، دبت بينهم روح كالسحر ما بين مصدق ومذهول ! ولولا ثقتهم المطلقة به لما صدقه أحد !

وسرعان ما تحولت الساحة إلى خلية نحل تكأكأ حول الغزل فى كل الأركان وعلى الأسوار ! ويونس يتنقل بينهم فى حب وحنان ليوجههم حتى لا يجذبوا الشباك بشدة أو يضربوها بالعصى كما يفعل أغلب الصيادين عند صيانتها وتنظيفها أو يعرضوها طويلا لأشعة الشمس المباشرة ، مع مراعاة تنظيفها تماما بحيث لا تترك بين خيوطها أعشاب البحر أو المواد اللزجة التى تكثر على هذه الأعشاب ، وغسلها بالماء العذب بعناية لأن المياه المالحة ضارة

بخيوط الغزل ، ونشرها فى الظل ، ثم صبغها بالمواد المحافظة بحيث يمكن استعمالها مدة تزيد على خمسة أضعاف المدة التى يستعمل فيها الغزل غير المصبوغ . فالصباغة بمحلول كالخشيبة مثلا يكسب الخيوط متانة ومناعة ضد البكتيريا التى تسبب فساد الغزل وانحلاله .

ظل يونس فى تنقله بين الصيادين كالنحلة ينثر معلوماته وخبراته نظريا وعمليا . عرفوا منه أن الخشيبة هى القشور الخارجية لبعض الأشجار التى تكثر فى تركيا . وتطحن هذه القشور فيكون مسحوقها أحمر قاتم ، ثم تغلى فى الماء لتعطى محلولا فى لون الشاى .

وتحت إشراف يونس قام الشبان الذين يمارسون العملية لأول مرة بتحضير المحلول وغليه أثناء وجود الغزل فيه لمدة نصف ساعة ، وبعد ذلك يقفل الوعاء ويبعد عن النار لمدة يوم كامل ، ثم يرفع الغزل فى اليوم التالى وينشر ليجف دون أن يعصر ، ثم تعاد العملية كلها مرة أخرى فى محلول الخشيبة السابق بعد إضافة اثنين كيلو جرام من الخشيبة ثم يجفف أيضا وبعد ذلك يغمس فى محلول مشابه من كبريتات النحاس والنشادر .

تمت العملية على أفضل وجه ، وأثبت الشباب قدرتهم على إتقان ما برع فيه الجيل القديم ، وعويس يكاد يموت حنقا ، خاصة فى ذلك اليوم الذى قدم فيه يونس إلى السراى ليحصل على المكافأة شخصيا ، وبعدها وزعها على زملائه وسط فرحة عارمة فى عصر اليوم نفسه . وقد حاول كلاب البحر الإيحاء بأن يونس احتجز لنفسه نصيب الأسد من المكافأة لكن محاولاتهم ذابت تحت حرارة البهجة وأقدام الراقصين منهم وهم يغنون بقيادة مرسى :

صيـــد الــــعصارى يا سمك بنـــــى
واضرب يا قارح فى البحـــــــر المالح
صيـــادك فالح واصطـــادك منـــــى
واضرب يا خوجه فى البحر ابو موجـه
صيـــادك موضة وبـــده يجننـــــى
صيـــد الــــعصارى يا سمك بنـــــى

* * *

كان عويس يتابع الهرج والمرج من نافذة مكتبه المطل على الساحة ، بملامحه الصخرية ، وشاربه الأشعث ، ولحيته الكثة ، وعينه الزجاجية ، فذهب مرسى إلى مسافة قريبة منه ورفع عقيرته بالغناء :

أحبابنـــا اللى جافونـــا فضنـــــا منهم
زى الموجـــة الغـــدارة يتخـــاف منهم
جم يطلبوا الصلح بعد اللى جرى منهم
معلهش طب نصطلح وناخد الحرص منهم

* * *

لم يحتمل عويس هذا الكيد فصرخ فى رجاله بالانصراف ، وصفق النافذة حتى كاد أن يكسر ضلفتيها فى حين انفجر يونس ضاحكا من أعماق قلبه ضحكة صافية منتصرة لم يضحك مثلها منذ غرق أبيه !

٧

جلنـــــــا المدره
برضه برضه
عينـــــى عينـــــى
هيـــــلا هيـــــلا
وهـــــــوب ليصأ
هيـــــلا هيـــــلا
ليصا ليصا
ليصا ليصا

* * *

شقت المراكب قلب الموج الخفاق على أنغام الصيادين التى رددتها أصداء الرياح لأول مرة بعد غرق البرهومى ! لم تخفف عتمة الفجر المبكر من وطأتها برغم يوليو الذى يطول فيه النهار ! ولم يقلل من سعا[illegible]نس وإحساسه بالانتصار والتفاؤل سوى نظرات عويس إليه ، وإصراره على الفصل بينه وبين مرسى بوضع كل منهما على مركب ، وكذلك تحذيرات حورية قبل مغادرته البيت كى يظل حريصا يقظا ليأمن شر عويس الذى لا يمكن أن يكون قد تخلى عما فى رأسه بهذه البساطة حتى لو ادعى سيده أنه فى صف الصيادين !

وكان هذا رأى يونس أيضا . فقد اعتبر هذه الفترة مجرد شهر عسل مزيف بينه وبين الرعاد ، أو هدنة لتعديل الخطط بعد أن أوشكت الأساليب القديمة على تفجير بركان الثورة بعد توحيد صفوف الصيادين ! أما عن نظرات عويس الباسمة إليه وتحياته الحارة كلما مر به على سطح المركب فلا يمكن أن تؤخذ على محمل حسن الظن ، وإن كان معظم الصيادين قد سعدوا بها بعد أن أجزل الرعاد لهم العطاء ، وبعد أن تحولت معاملة كلاب البحر لهم إلى رقة واحترام غريب لدرجة أن بعضهم وخاصة العجائز منهم ندموا على تسميتهم بهذا اللقب وشرعوا فى رد التحية بأحسن منها !

سأل يونس عم عبد الرحمن الجالس إلى جواره على اللوح الخشبى المربوط إلى جدار المركب :

ــ لا أكاد أصدق عينى !

تشبث الكهل بالحبل الغليظ عند هزة عنيفة للمركب :

ــ ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال ! عموما البركة فى اللمة !

ــ كان رأيهم المثل الذى يقول : زى المراكبية يتخانقوا على حبل ! ماذا غيرهم بهذه البساطة ؟!

ــ وأيضا : المراكبية ما يفتكروش ربنا إلا وقت الغرق ! وليس من الضرورى أن يكون الغرق فى الماء !!

كان يونس عاشقا لحكمة الكهل الذى لا يعرف القراءة والكتابة ، ولذلك حرص دائما على الالتصاق به وتجاذب أطراف الحديث لقتل الوقت . قال :

ـــ عموما المية تكدب الغطاس !

ـــ عندك حق فهم من النوع الذى يعوم ويحرس ثيابه !

كاد كلب البحر الذى كان يتمشى أمامهما ذهابا وإيابا لعله يلتقط شيئا ، كاد أن يموت حنقا لإصرارهما على التكلم بالأمثال أو بالألغاز لدرجة أنه ألقى عليهما بالسلام وجلس إلى جوارهما على اللوح المهتز ، فى حين تبادل يونس مع عم عبد الرحمن نظرات باسمة دون كلمة واحدة ! .

انبلج الفجر عن خيوطه النوارنية المنبثقة من خيط الأفق والمراكب تتوغل فى قلب البحر على بساط سرمدى من التماوجات الزرقاء والخضراء ! وبمجرد توقف المحركات وسريان السكون مع حفيف الفراغ وكثافة الضباب الذى يسبق شروق الشمس ، شرعت المراكب فى إلقاء الغزل ، وطفت قطع الفل على السطح حاملة قطع الغزل التى غطست فاتحة ثقوبها لابتلاع الأسماك مرة بغزل ذى ثلاث طبقات مربوط برصاص من أسفل وفل من أعلى بين مركبين بكل منهما مئة وخمسون مترا من الغزل ، ويربط غزلا المركبين أحدهما بالآخر ، ثم تسير المركبان فى اتجاه مضاد للأخرى ، ويرمى الغزل فى المياه بحيث ينتهى عند طرفيه بشكل حلزونى ، وبعد ذلك تبتعد المركبان بعدا كافيا ثم يشرع الصيادون بضرب المياه بالمدارى وهما راجعتان بحيث تقترب كل منهما إلى أحد طرفى الغزل ، ثم تشرعان فى جمعه .

ومرة أخرى بالطراحة العادية بعيونها الضيقة الخالية من المصارين ، التى تلقى قبل نزول الصياد ليتحسس السمك الموجود بها لجمعه معها ، ومرة ثالثة بالطراحة ذات المصارين من الداخل والتى تلقى وتجمع من المياه بدون

حاجة إلى النزول إلى المياه . والطراحة العادية تصطاد الونيس والشراغيش أما الثانية فتصيد البورى والطوبارة والقاروص بالإضافة إلى أسماك الطراحة العادية . ومرة رابعة بغزل المياس الذى يستخدم عند رؤية قطيع المياس الذى يلقى عليه الغزل على شكل حلقة تدور حوله فيندفع المياس متخبطا فيدخل فى عيون الشبكة وهكذا !

عند منتصف الليل شعر الصيادون بالإنهاك الشديد ومع ذلك واصلوا الصيد ! فهم الذين يسحبون شباك الجر بسواعدهم لعدم وجود أوناش لرفعها من الماء ! وكان اللقاء الوحيد الذى تم بين يونس ومرسى تحت الماء عند جمع الشراغيش والدنيس ، وبمجرد صعودهما تسلق كل منهما مركبه لكن خيطا غير منظور ربط العيون كلما حانت الفرصة إلى أن قبعت الظلمات على سطح المياه ، ولولا الفوانيس التى أنارت لصيد البورى لتحول الكون كله إلى قطعة من ظلام !

كان يونس منهمكا بكل كيانه فى الصيد بحيث لم يلمح كلب البحر الذى اقتفى أثره بمجرد هبوط الظلام ، وظلت عيناه عليه فى صعوده وهبوطه ، فى روحاته وغدواته حتى انتصاف الليل والشروع فى صيد البورى ! كان يونس منحنيا على الغزل الجديد ليفكه ويجذبه من مكانه فى مؤخرة المركب لإلقائه فى الماء ، فى الوقت الذى تقلصت فيه سواعد الصيادين وهم يشدون غزل البورى لرفعه ، وإذا بكلب البحر ينهال بهراوته من الخلف على رأس يونس الذى شعر بالمركب وقد تحولت إلى ريشة فى مهب الرياح ، ثم بقوة جاذبة لساقيه تلقيه فى المياه الباردة المظلمة التى تحولت إلى دوامة فتحت حلقها لابتلاعه فى نفس اللحظة التى صرخ فيها مرسى على المركب الموازية

لمؤخرة مركب يونس :

ــ يونس !! يونس يا رجال !!

لكن الصرخة تبددت مع ضربة هراوة على أم رأسه من الخلف ومع حناجر الصيادين المبحوحة :

جلنـــــــــا المدره
برضه   برضه
عينـــــى عينـــــى
هيـــــلا هيـــــلا
وهـــــــوب ليصا
هيـــــلا هيـــــلا
ليصا   ليصا

* * *

سقط مرسى بلا حراك على أحد الألواح الخشبية ! حام حوله كلب البحر فتأكد من فقدانه لوعيه ، تنقلت عيناه بين جسّمه الممدد وبين السطح المتماوج عدة مرات لكن بدا عليه أنه صرف النظر عن تنفيذ ما يجول بخاطره ، وتركه لينضم إلى الصيادين الملتصقين بجدار المركب فى الناحية الأخرى وسواعدهم الحجرية متقلصة على أطراف الغزل !

تحرك مرسى كنائم يعانى من كابوس جثم على أنفاسه ، ويحاول التخلص منه دون جدوى ! تحسس رأسه وتأوه ! ومع سريان الدوار والألم تذكر فى لحظات خاطفة ما جرى ليونس ثم تأكد فى اللحظات التالية أنه لم يكن كابوسا وإنما حقيقة واقعة ! حشد كل ما كمن فى قاع وجدانه من إرادة

وتحامل على نفسه حتى نهض ممسكا بجدار المركب باحثا بنظرات زائغة عن يونس ، فوجده طافيا عند مؤخرة مركبه وكأنه يحاول الإمساك بعامود الدفة ! نادى عليه لكن يبدو أن صوته ظل رهين صدره ، مثل عجز فكره تماما عن الترابط ! تحسس اللوح الملقى تحت قدميه فتحامل على نفسه فى محاولة مستميتة للتغلب على الدوار والألم ، وانحنى للتشبث باللوح ! ترنح على جدار المركب لكنه استند بظهره إليه دون أن يسقط اللوح من قبضته المرتعشة المهتزة . احتضنه ثم رفعه بكل ما تبقى لديه من عزيمة حتى وضعه على حافة الجدار وتركه يسقط بالقرب من يونس الذى تحول إلى جثة طافية لم يبد عليها أى أثر للحياة سوى ذراعه المتشبثة بالدفة !

صنع اللوح عند سقطته بؤرة لحفرة تناثرت منها المياه على شكل نافورة وصوت كلسعة سوط فى حين شعر مرسى بوعيه ينسحب منه ، تلاشت من تلافيف مخه لتسرى جحافل النمل فى ذراعيه وساقيه اللتين تحولتا إلى عجين مثل ذلك الذى يصنع منه طعم السنارة ! وسقط بين الحبال مثل خرقة بالية ! وعاذ كلب البحر ليجده مكانه فتركه وابتسامة الرضا تفترش وجهه !

عندما سقط اللوح إلى جوار يونس ولطم وجهه رذاذ النافورة ، نظر إلى أعلى فرأى وجه مرسى الذى سرعان ما اختفى كما لو كان فى حلم ! أفاق إلى نفسه بعض الشيء فشعر بالآلام المبرحة تكاد تفتك برأسه وكتفيه وظهره ، لكنه سعد بها ، فهى الدليل الوحيد على أنه لم يفقد الوعى والإحساس ، وإن كانت المياه تحدث طنينا مكتوما فى أذنيه ، يمنعه من سماع ما حوله من أصوات ! تذكر حورية وابنه الكامن فى أحشائها فقرر العودة إليها حتى

لو اعترض طريقه زبانية الجحيم وحيتان البحر كلها ! فكر فى الانتظار قليلا حتى يستجمع أكبر قدر ممكن من طاقته المتسللة من جسده المنهك ، كى يستعين به على تسلق أحد الحبال المدلاة من المركب ! لكنه أدرك برغم الضباب المحيط بعقله ووجدانه أنه إذا كان الرعاد قد أصدر قراره بتصفيته إلى الأبد ، فإن صعوده إلى سطح المركب لا يعنى سوى القضاء النهائى عليه ! وهو وإن كان لا بد أن يموت فلا بد أن يكون لموته معنى ، ومعنى كبير أيضا ! فهو ليس من النوع الذى يمكن أن تلقى جثته طعاما شهيا للسمك ! يجب أن يعلم الرعاد أن لحمه مر بل وسام إذا حاول ابتلاعه !

نظر حوله فى مقاومة عنيفة ليأس خانق لعله يجد ما يمكن أن يساعده على اتخاذ قرار ، لكن سرعان ما دارت محركات المراكب محدثة من الأمواج ما لفظه بعيدا عنها ! لم يلمحه أحد من صيادى المراكب الخمس وهى تشق العباب إلى قلب البحر تاركة إياه متشبثا باللوح الطافى ! تسلل الماء البارد والهواء الرطب إلى سرواله الصوفى الخفيف فسرى فى جسده بقشعريرة غمرت دواره وألمه وعادت به إلى عالم اليقظة والوعى شبه الكامل !

تضاءلت المراكب بفوانيسها الخافتة وهى تبتعد حتى كاد فحيح البحر أن يبتلع ضجيج محركاتها ، وسرعان ما تحولت إلى بقع ضوئية كشموع ذابلة تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة ! نظر يونس إلى السماء بحثا عن النجم الهادى لكن الظلمات كانت قد ابتلعت كل شىء ! لهج قلبه بصوت طغى على طنين أذنيه :

— يا رب ! إننى أحارب من أجل ما أعتقد أنه حق ! وكلى إيمان أنك لن تتخلى عنى !

استدار فوجد ذبالات خافتة عند الأفق تكاد لا تلتقطها العين لولا حدة بصره ! تذكر أن المراكب عندما رست فى آخر موقع لم تكن بعيدة بعدا ساحقا عن الساحل . فهو يكاد يحفظ المنطقة ككف يده ، وطالما أن أسطول الصيد الوحيد يملكه الرعاد فلا بد أن تكون هذه الذبالات الخافتة عند الأفق هى أضواء الساحل عند الترسانة التى تصنع فيها المراكب ويتم تجديدها ، وطالما أن بقاءه هكذا بين الماء والسماء سيضعه بين الموت والحياة فلا خيار له سوى أن يستميت فى الوصول إلى البر ، فهو سباح ماهر يتعامل مع الماء كسمكة وقد ألهم الله مرسى كى يلقى له هذا اللوح الخشبى الذى يحتضنه فى شغف كدليل مادى على أمل النجاة الذى أضاء وجدانه ! كل ما يتمناه أن يمنحه الله القوة الجسدية حتى يعود إلى حبيبة عمره !

دقق البصر فى الذبالات المتهافتة فوجدها لا تزال فى مكانها ، فى حين أضاء وجه حورية الأفق كله ، بوميض عينيها الواسعتين السوداوين ، وأنفها المشرئب إلى أعلى ، وشفتيها الغليظتين الساخنتين ، وخصلات شعرها السوداء الناعمة المحيطة بوجهها البرونزى الدافئ ، والمنهمرة على كتفيها وظهرها !

فجأة دفع المياه الباردة بقدميه فانطلق اللوح يمخر عباب المياه السوداء دون أن يسمح لنفسه فى التفكير فى آلام رأسه وكتفيه وظهره ! كذلك لن يسمح للرعاد بمتعة اللحظة التى يتلقى فيها نبأ غرقه كى يذرف عليه دموع التماسيح فى حين يكاد قلبه أن يقفز من بين ضلوعه فرحا ونشوة ! لن ينال الرعاد هذه اللحظة ، ولن تقع حورية تحت رحمته ، فليس للشر أن ينتصر على الخير وإلا فلا داعى للحياة نفسها !

شعر بجحافل الحياة تسرى فى عروقه ، مكتسحة أمامها دبيب الموت برغم ساقيه المنهكتين ! توقف عن ضرب المياه بساقيه وذراعيه شاعرا بالمد يجذب اللوح إلى الذبالات المتهافتة مع كل موجة متهادية فى طريقها إلى الساحل ! لكن بمجرد إحساسه ببعض الراحة كانت ضرباته تتوالى دون أن يصدر الأمر إلى ساقيه وذراعيه ! كانت هناك قوة خفية غامضة لا يدرك كنهها تدفعه إلى البر وكأنها قادمة من خارج جسده ! فلم يكن الأمر قاصرا على القوة الكامنة داخله ، فقد تسربت منه مع الهراوات المطاطية المنهالة على رأسه وظهره وكتفيه ، والتى قد يضيع معها الوعى أو الحياة دون أثر ظاهر على الجسد ! فلولا هذه القوة الخفية الغامضة لكان الآن نهبا لتيارات المياه السوداء التى لا تفرق بين الجسد الحى أو اللوح الخشبى !

لا بد أن الله يريد له الحياة ، ولا بد أن يستميت حتى ينفذ إرادته ! فسوف يحافظ عليها من أجل رسالة فى انتظاره ولذلك فهو يدفع المياه الباردة المظلمة بذراعيه وساقيه على تيار المد المتدفق مع كل موجة لاهثة صوب الذبالات الخافتة التى يبدو — والله أعلم — أنها أصبحت أكثر وضوحا ! وحتى لو كانت مراكب صيد أخرى أو سفن شحن أو ركاب فكلها بر أمان له ! المهم أن يصل إليها حتى لا يتحول الليل إلى كابوس قد لا يفيق منه إلى الأبد !

صلى لله بكلمات لم تنطق من لسانه وإنما توهج بها قلبه ! كل ما يتمناه أن يظل المد مواتيا مع هذه القوة الخفية الغامضة وكأنها يد الله ! فإذا كان الله يحب امتحان عباده الصالحين ، فهو يسأله اجتياز الامتحان العسير وبنجاح ! وسوف يجتازه بإذن الله وقلبه يلهج بحمده على نعمه العظيمة :

اللوح الخشبى والمد المواتى والقوة الخفية !

ظلت عيناه معلقتين بالذبالات الخافتة حتى وجد اللوح الخشبى وقد تحول إلى مروحة طائرة هليكوبتر مثل تلك التى كانت تنطلق أحيانا من قاعدة ساحلية قريبة ! دوامة شرسة جذبته إلى بؤرتها الممتدة إلى القاع بعامود مائى مروحى ، فى حين دارت حولها تيارات المياه المظلمة الباردة فى دائرة أوسع من ميدان سوق البلد !

أغمض عينيه واحتضن اللوح الخشبى بعنف أشد من أحضانه لحورية ، وقد أعاد هدير الدوامة الطنين إلى أذنيه فلم يعد يرى أو يسمع أو يشعر إلا بأصابع المردة المائية تحاول سحب اللوح من بين أحضانه ، لكن القوة الخفية الغامضة لم تتخل عنه بعد أن أصبح هو واللوح كتلة واحدة برغم ارتعاشة ذراعيه حوله ! غمره الرعب عندما وجد كتلته تنجذب نحو القاع وكأن إحدى حوريات البحر كانت عازمة على الزواج منه وإقامة عرسه فى مملكتها بين الصخور والشعب المرجانية !

لم يعرف كم من الوقت مر ؟! ربما كان لحظات أو دقائق أو ساعات أو دهورا ! لم يدرك إلى أى مدى كان واعيا أم أنه غاب عن الوجود تماما ! لم يتبين هل كان فى عداد الأحياء أم أنه عبر الحياة إلى الآخرة ؟! هل توقف الزمن نفسه لأن الدوامة كانت أسرع من دورته ؟!

لكن كل ما يعرفه ويتذكره أن اللوح صعد جبلا من المياه الباردة المظلمة بعد أن تخلص من قبضة السفح العميق ، وعندما بلغ القمة انطلق مرة أخرى على المد المواتى مع الأمواج المتهادية التى افتقدها كثيرا ! فتح عينيه لكن الظلمات كانت تغمر الكون كله ! أغرقه الرعب للمرة الثانية عندما دقق

البصر فلم ير الذبالات الخافتة ! اختفت تماما وكأنها كانت وهماً صوره له عقله المحموم فى بحثه عن الأمل فى عودته حيا إلى حبيبة عمره ! كان المد قد أصبح جزرا سحبه إلى قلب البحر بكل ظلماته المتكاثفة !

قاوم السحب الهادر الغامر ليستدير باللوح مرة أخرى ، فإذا به يرى الذبالات الخافتة ، لكنها كانت قد تضاءلت بعض الشيء ! عادت ذراعاه وساقاه تضربان المياه فى جنون محموم حتى التقيتا بموجة صديقة حميمة مع مد جديد صوب البر ، فالتقط أنفاسه وترك جسده لها لتغمره فى سعادة منتشية وكأنها لمسات حورية !

انطلق اللوح ولم يبخل عليه بضربات لا تصدر إلا من مارد إسطورى ! أصبح جسده آلة يوجهها كما يشاء بلا جهد ! فلم يكن يستريح إلا للحظات وعيناه على الذبالات الخافتة التى بدأت تتضح بالفعل ! لم يسمح لعينيه بالراحة والاسترخاء برغم الملوحة التى لا بد وأنها أحالت بياضها الجليدى إلى حمرة دموية !

طرد من ذهنه المكدود كل احتمالات دوامات قادمة ، فلم يعد يعبأ بما سوف يقع له ! فمن يواجه الموت بهذه الشراسة ولهذه المدة فلا بد أن يفقد رهبته ! فليحدث ما يحدث لكن عينيه لن تفارقا الذبالات التى أصبحت أضواء تسرى بالنور فى قلبه الذى رأى وجه حورية عند الأفق بوميض عينيها الواسعتين السوداوين ، وأنفها المشرئب إلى أعلى ، وشفتيها الغليظتين الساخنتين ، وخصلات شعرها السوداء الناعمة المحيطة بوجهها البرونزى الدافئ ، والمنهمرة على كتفيها وظهرها !

اطمأن للمد الصديق الحميم فتوقفت ضرباته المحمومة ، وسرت فى

جسده موجات نعاس لم يستسلم له تماما وإن كان قد رحب بمقدمه ! أغمض عينيه تاركا نفسه فى منطقة بين الحلم واليقظة ! فقد دلته حاسته ودرايته بالبحر إلى أنه لن يغدر به بعد أن نال احترامه فى محنة كان ندا لها ! وتشبث باللوح تاركا تفسه لأحضان الأمواج الصديقة الغامرة !

تسلل نور رمادى فضى عبر أهدابه ، ففتح عينيه مستمتعا ببعض القوة العائدة إلى جسده وإذا بخيوط الفجر الحبيب تمتد فى القبة الداكنة عبر الضباب المتكاثف ! لهج قلبه بحمد الله إذ أنه رأى بعض طيور النورس تتهادى بأجنحتها البيضاء عند خط الأفق الذى كشف عن بعض البيوت الوادعة التى بدت وكأنها علب كبريت ! لم يجهد عينيه بالبحث عن الأضواء المتناثرة بعد أن تأكد من أنه سيكون على البر بعد ساعة على أكثر تقدير !

التقطت مسامعه صيحات النورس البعيدة ، فكانت أجمل موسيقى شنفت أذنيه وسرت بالدماء الساخنة فى أطرافه الباردة المتيبسة ! حتى المياه أصبحت أكثر دفئا بلمساتها المغرية بالنعاس الذى قاومه ! فهو قريب من ذراعى حورية وأحضانها حيث النوم الحالم المنتشى بأنفاسها المعطرة ! لم يكن أمله فى النجاة وهماً برغم كل ما حدث ! فلا بد أن يكون الله قد حافظ عليه لرسالة قادمة ، رسالة صاعقة للرعاد وعصابته ! لكن كيف ؟! هذا ما لم يشغل نفسه به وطيور النورس تحلق حوله بصيحاتها المرحبة المهنئة بسلامة الوصول !

ظهرت البيوت الممتدة بطول الشريط الساحلى وسرعان ما تعرف عليها ! إنه الجانب الخلفى للبلد حيث يمكنه اختراق سبيل مهجور لكنه

قصير إلى بيته ! سعد لأنه لم يلتق بقوارب الصيادين الصغيرة التى تعمل بالقرب من الساحل ، فقد يكون من الأفضل ألا يراه أحد حتى يجمع شتات تفكيره بعد أن وجد نفسه فى موقف لم يخطر بباله ! كيف سيكون وقع المفاجأة المذهلة على حورية عندما تجده وهو يدخل عليها مصابا منهكا منهارا ؟! هل ستعود إلى لومها وقلقها بل ورعبها ؟! ما الذى تحمله الأيام القادمة فى جعبتها ؟! ما الخطوة القادمة للرعاد وعصابته ؟! ما موقف أهل البلد من هذه الدوامة ؟! هل سيذهب مرسى لإبلاغ الشرطة ؟! أم أن أحدا لن يصدقه كالعادة ؟! خاصة بعد أن يظهر للجميع حيا ؟! لكن لا بد أنهم اكتشفوا غيابه على المركب ؟! فماذا هم فاعلون ؟! هل من الحكمة أن يثبت وجوده الآن على الأرض لاكتساب شهود عيان إذا اقتضى الأمر ؟! لكن هل سيصدق أحد من المسئولين أنه عاد كل هذه المسافة على لوح خشبى ؟! وحتى لو صدقوه !! هل سيجرؤ أحد على الإدلاء بشهادته ؟! طالما أن التهديد بلغ مرحلة القضاء على الحياة نفسها ، والحياة غالية ؟!

كلها علامات استفهام تراقصت على واجهات البيوت الوادعة دون أن تلقى إجابة ولو غير شافية ! كل ما يعرفه الآن أن الحال لم تعد الحال وعليه أن يؤجل التفكير فى الاحتمالات القادمة وإن كان يعرف رأى حورية مقدما ! يكفيه الآن أن الرعاد ألقاه فى البحر لكن الله أعطاه عمراً !

غمرت أنوار الفجر الدنيا واللوح الخشبى يلتقى باليابسة الرملية التى حاولت التسرب من تحته مع موجة عائدة لكن موجة قادمة غرسته فى الرمال . نهض يونس واقفا محاولا قهر دوار رأسه وطنين أذنيه ! نظر للوح فى حنان جارف وود لو حمله معه بامتنان شديد لكن العين بصيرة واليد

هزيلة وإن لم تكن قصيرة ! كانت الرمال الخشنة والقواقع الصغيرة المتكسرة المتناثرة والطحالب الزلقة تميد من تحت قدميه ، لكنه تماسك كى يصل إلى بيته بأسرع ما يمكن ، فلا أحد يعلم ما الذى يمكن أن يحدث لو اكتشف الرعاد أنه حى يرزق ؟! طالما أن الصراع بلغ حد القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد ؟!

كانت البيوت حوله تدور ، والطريق تحت قدميه يعلو ويهبط ، ومع ذلك حملته ساقاه فى خفة الأرنب مخترقا السبيل القصير المهجور الذى يمر بالمقابر وبعض العشش المنهارة أو المحترقة ! آه .. حتى الدفن فى هذه المقابر أصبح ميزة ، أراد الرعاد أن يحرمه منها ! ففى البحر لا يوجد شاهد واحد مثل تلك الشواهد التى تعلن عن أسماء أصحابها أو على الأقل عن مقابر خلفها لا يصح أن يطأ عليها الأحياء !

عندما بلغ باب بيته بحث فى جيب سرواله الصوفى الخفيف عن المفتاح فلم يجده برغم ربطه بسلسلة لا بد أنها الآن معه فى قاع البحر ! رفع يده ليدق لكنه تردد خوفا من إزعاجها فى هذا الوقت المبكر من الفجر خاصة وأنها كانت تعانى من الأشهر الأولى للحمل ! نظر يمنة ويسرة لكنه لم يسمع صراخ ابن يومين ! اجتاحته نوبة دوار عنيف مع إنهاك شديد حتى كاد أن يسقط مكانه ، فدق على الباب بجنون لم يقصده ! لم ترد ! أعاد الدقات وبكلتا يديه فإذا بصوتها الحبيب يعلو وقد طفر منه الخوف والرعب :

— من ؟!

— افتحى ! أنا يونس !

— خير ؟! ماذا أتى بك الآن ؟!

فتحت الباب بعينين مفتوحتين كأنهما تريدان التأكد من الواقف أمامها ! فالأشباح لا تزور الناس فى الفجر ! مدت يدها وجذبته وهى تتأمل فى ذهول عينيه الحمراوين ورأسه المتورم وشعره الذى لا يزال يحمل بقايا رذاذ ! انقاد إليها مستمتعا بقبضة يدها الحانية الدافئة وهو يغلق الباب قائلا :

ــ لا تقلقى ! سأحكى لك كل شىء !

دقت على صدرها فى شهقة ردد صداها سكون الفجر :

ــ يعنى هناك ما يقلق ؟!

تظاهر بالثبات والقوة مانعاً نفسه من أن يتكئ عليها حتى دخلا غرفة النوم فألقى نفسه على الصندوق الأخضر ، أول شىء قابله ! جلست إلى جواره وهى تحتضنه بجوارحها قبل ذراعيها :

ــ إذا كنت غير قادر على الكلام ! استرح أولا ! أستطيع أن أنتظر ! يكفى أنك معى ! لا أريد من الدنيا أكثر من هذا !

لكنه واصل تظاهره بالصمود وشرع فى سرد قصته منذ تلقيه ضربات الهراوة المطاطية من الخلف على رأسه وكتفيه وظهره ، وحورية تتشبث به أكثر وهى تتحسس بيد مرتعشة الأماكن المصابة ، وعيناها لا تفارقان عينيه ، ولسانها لا يكف عن الترديد دون تفكير : يا مصيبتى ! بعد الشر عنك يا حبيبى ! يا ليتنى كنت أنا ؟! الوحش المجرم منه لله ! له يوم !! لن يهرب من غضب الله ! المهم سلامتك أنت يا حبيبى ! كتب الله لك عمرا جديدا لأنه عالم بحالى ! الحمد لله على كل شىء !

صمت يونس وقد استكان إلى جلسته على الصندوق عند بلوغه نهاية

قصته المخيفة . كانت حورية على وشك أن تطلب منه تغيير ملابسه لينهض للاسترخاء والنوم لكنه فاجأها بسؤال كانت تتمنى الإجابة عليه :

ــ والآن .. ما العمل يا حورية ؟!

علت نبراتها لأول مرة فى سكون الفجر :

ــ الإجابة معروفة مقدما ! سلامتك عندى بالدنيا كلها ! سنترك لهم الجمل بما حمل .. ونرحل ! أرض الله واسعة !

ــ ليس الأمر بهذه البساطة !!

ــ نعم .. ليس بهذه البساطة إذا بلغ حد القتل ! لا بد أن تختفى عن العيون حتى نرى ما سوف يفعله كلاب البحر !.

عاد الوميض الخاطف إلى عينى يونس برغم حمرتهما القانية :

ــ فعلا .. فلا أحد يستطيع أن يتنبأ بالخطوة التالية !!

أمسك يدها وقبلها فى حنان بالغ وهى تقول له :

ــ غير ملابسك .. وقم للراحة !!

ــ كنت أظن أننى بمجرد وصولى سأرتمى على الفراش تحت وطأة النعاس ! لكنه يبدو أنه هرب منى كما نفذت أنا بجلدى من كلاب البحر !

ــ لن ننفذ بجلدنا إلا إذا بعدنا عن الشر وغنينا له !

نهضت لتفتح الصوان وتخرج منه غيارا داخليا وجلبابا ناصع البياض ، فقال لها مبتسما :

ــ تجتاحنى رغبة عارمة فى حمام ساخن قد يزيل عنى بعض التعب !

و[illegible] على الصندوق فى حين قبلت وجنته :

ــ [illegible]ك الماء !

تركته إلى الحمام فحمل ملابسه خلفها وقد سرى دفء البيت فى عروقه حتى كاد أن ينسى الأهوال التى مر بها ! وقف مستندا إلى باب الحمام يرقبها وهى تشعل موقد الغاز القديم وتعالجه بالإبرة مرة ومرات حتى استوت شعلته وهديره فوضعت عليه صفيحة المياه ! سألها وقد شرع فى التخلص من سرواله بعد أن ألقى بالصديرى أرضا :

ــ لكن كيف سأختفى ؟! ألن يأتى أحد إلى البيت الذى أصبح صاحبه حديث البلد ؟! على الأقل لتقديم واجب العزاء !!

شهقت وهى تدق على صدرها ناهضة :

ــ فأل الله ولا فألك يا شيخ !! على كل حال يمكنك الاختفاء فى الصندوق إذا جاء أحدهم .. فكم اختبأنا فيه ونحن صغار هربا من عقاب أبى !

ــ يبدو أننا سنرى العجب العجاب !! وبعد ذلك أفاجئهم بتفاصيل ما جرى لى !!

ــ سيصدقك الجميع .. لكن ما قيمة الصدق فى مواجهة دهاء الرعاد وأكاذيبه إذا اقتضى الأمر ؟!

ــ عندك حق ! الموضوع فى حاجة إلى تفكير عميق !

تخلص من ملابسه تماما وهرع ليقبع فى الطست النحاسى الكبير ، فلمحت حورية الآثار الحمراء المتورمة على كتفيه وظهره فشهقت :

ــ قطع الله أيديهم !

استدار فى ابتسامة حانية :

ــ لمسة يديك كفيلة بتخفيف الألم !

جرت أصابعها على رأسه فى حنان دافق :

ــ لكن الماء لم يسخن بعد !

ــ لن يكون أبرد من ماء البحر !

وشرعت فى صب الماء بكوز لم يصدأ بعد على ظهره ، ودعك اللوفة بالصابون حتى تشبعت بالفقاقيع الرغوية ، ثم جرت يدها بحنان ورقة على ظهره ، ومن حين لآخر كانت تقبل الخطوط الغليظة الحمراء المتورمة فيبتسم ثم ينفجر ضاحكا :

ــ لا أطمع فى علاج أجمل من هذا !

ابتسمت بدورها وهى تدارى دمعة هربت من عينها اليمنى وتدحرجت على وجنتها البرونزية دون إذن منها :

ــ كفاك دلالا .. لا تضيع الوقت فأنت فى أشد الحاجة إلى النوم والراحة !

ــ بشرط ؟!

ــ أشرط كما تشاء !

ــ بين أحضانك !

ــ غال والطلب رخيص !

وانكبت على إزالة آثار العدوان وهى تكاد تحتويه بمائه وصابونه ، وهو مغمض العينين ، مستسلم للمساتها التى كان يحلم بها منذ ساعة واحدة فقط ، ومنّ الله بها عليه أخيرا !

وفى الخارج بدأت الحياة تدب فى الطريق الرملى ما بين وقع أقدام وحمحمة وحوقلة وتبادل تحيات الصباح وتمنيات حارة بنهار أبيض منير !

عادت المراكب كأنها فى موكب جنائزى رهيب ! خيم الصمت على الجميع ولولا هدير المحركات لقتل السكون الصيادين ! نطقت عيونهم بمشاعر الكمد والحزن والحيرة والقلق واليأس والضيق والكبت والألم لكن الأمر اقتصر على تبادل النظرات الكسيرة أو المتفجرة ! حتى صيحات طيور النورس التى حامت حول المراكب والتى طالما أثارت البهجة والفرح ، تحولت إلى ندب وعويل لا يصدر إلا عن نسوة عجائز !

هل يعقل أن يضيع يونس هكذا فى شربة ماء ؟! وهو الذى جمع بينهم وكافح من أجلهم وكان وسطهم شعلة الأمل والعمل برغم كل أمواج اليأس والإحباط التى تكاد تغرقهم ؟! هل يمكن أن يمر فقده هكذا بلا حساب كما لو كان سمكة تم اصطيادها ثم ألقى بها صياد مجنون إلى أليم وهو يطلق ضحكات مسعورة ؟! كان مرسى على شفا الجنون وود لو قتل أحد كلاب البحر ليشفى غليله أو أفضى بمكنونات قلبه إلى عم عبد الرحمن ، لكن حتى هذه الرغبة لم تكن متاحة فقد كان كل منهما على مركب ! هل يعلن على الملأ ما رآه وما وقع له ؟! سيصدقه الجميع لا شك لكن أين الدليل وعويس نفسه هو الذى أعلن فقده بنبرات متهدجة وعبرات من عينه اليمنى كادت تتألق فى اليسرى الزجاجية ؟! بل إنه ألمح إلى أنه لن يهدأ له بال إلا إذا عثر على المجرم لو كان فى الأمر ثمة جريمة ! هل يمكن أن يكون يونس قد نجح فى بلوغ البر

مستعينا باللوح الذى ألقى به إليه ؟! إن المسافة بعيدة ومليئة بالأمواج العاتية ، والدوامات التى لا ينجو منها أحد ، والتيارات الغادرة فى ليلة مظلمة تحالفت مع الريح الهوجاء التى أيقظت مرسى من غيبوبته عند مؤخرة المركب ؟! آه لو تحقق هذا الحلم ! لكان أكبر ضربة توجه إلى كلاب البحر ! وعلى رأسهم الرعاد !

طفرت دمعة كبيرة من عينى مرسى لمحها أحد كلاب البحر الذى حرص على رقابته منذ أن أفاق من غيبوبته والذى لا بد أنه كان المعتدى عليه بالهراوة المطاطية ! مسح مرسى عينيه ووجنتيه وأقسم أن يدلى بشهادته فى قسم الشرطة وليكن ما يكون ! لن يحتمل ضميره أكثر مما احتمل ! صحيح أن أحدا من الصيادين لم يشهد ما وقع بالإضافة إلى الرعب السارى فى نفوسهم ، لكن عليه أن يفرغ الحمل الذى يبهظ كاهل ضميره وليكن ما يكون !

سطعت الشمس الباهرة فى كبد السماء وقد ظهر الساحل على مرمى البصر ! تأمل مرسى المياه المتراقصة تحت المركب : هل يمكن أن يكون يونس قد مر بلوحه من هنا أم أنه الآن طعام للأسماك المتوحشة القابعة عند القاع بين الصخور والشعب المرجانية ؟! آه !! قلبه يكاد ينفطر ووجدانه يكاد ينفجر وروحه تكاد تنشطر كلما تصور نفسه وهو يخبر حورية بالنبأ الحزين ! لا .. لن يريها وجهه ، لكنه سيؤدى واجبه ! فلم يعد للخوف أى مبرر ، ولم تعد الحياة تستحق أن تعاش ! فبعد أن بدأ الرعاد بيونس فلا بد أنه قرر القضاء ، بطريقة أو بأخرى ، على كل من تسول له نفسه أن يرفع رأسه ! لكنه سيرفع رأسه فيونس لم يمت !

كانت سيارات النقل تقف على الطريق الساحلى فى انتظار نقل شحنات السمك التى جاءت بها المراكب التى ألقت مراسيها ! شرع الصيادون فى نقل السمك من الثلاجات لكن مرسى لم يجد نفسه قادرا على مشاركتهم فسار على الساحل صوب بيته الذى يقع بالقرب من قسم الشرطة ! أشار عويس من طرف خفى إلى أحد رجاله فأسرع خلفه وإن لم يبد أنه يطارده فى حين أسرع عويس فركب سيارته السوداء الفاخرة التى قادها أحد رجاله صوب قصر الرعاد الذى كان فى جلسته المفضلة أمام الشرفة المطلة على البحر الذى تألق زبد أمواجه الأبيض تحت القرص الذهبى الساخن عندما دخل عويس دون استئذان :

— كل شىء تمام يا سعادة البك !

— والصيادون ؟!

— لم يفتح أحدهم فمه بكلمة وإن كنا نقرأ ما فى قلوبهم !

— ومرسى ؟!

— كما قلت لسعادتك فى اللاسلكى .. لم يفلت من رقابتنا .. بل وأرسلت خلفه من سيراقبه ليل نهار !

أطلق الرعاد نفسا طويلا صافيا من سيجاره ذى الرائحة النفاذة وربت على كرشه المنتفخ فى رضا عميق متأملا خاتمه الماسى المتألق مع وميض القرص الذهبى :

— لا بد أن نعالج الأمر بمنتهى الحكمة والدهاء حتى نستفيد منه أكبر استفادة ممكنة ! لقد أصدرت أوامرى بإقامة سرادق ضخم أمام بيته .. وعليك أن تذهب إلى قسم الشرطة للتبليغ .. ثم تزور زوجته لإبلاغها

ومنحها مكافأة ضخمة مع تلبية كل ما تطلبه !

تردد عويس فى وقفته الحائرة بعض الشىء فلم يتصور أنه سيوكل إليه بكل هذه المهام الثقيلة دفعة واحدة ، فى حين جرت أصابع الرعاد الغليظة على شاربه الكث وصلعته اللامعة ثم على شعر القطة الرمادية السمينة القابعة فى حجره التى تمددت فى سعادة واسترخاء بالغين دون أن تنظر إلى سيدها :

— ماذا تنتظر ؟!

تنبه عويس من حيرته العابرة على سؤال الرعاد الذى اخترق مسامعه فقال :

— أبدا .. تحت أمرك ! عن إذن سعادتك !!

وانسحب بدقات ساقه الخشبية وهو يحك لحيته الكثة بأظافره حتى خرج من الباب الزجاجى الداكن ! ركب سيارته السوداء مع اثنين من رجاله آمرا السائق بالتوجه إلى قسم الشرطة ! كان الطريق زاخرا بالأحجار الصخرية الكامنة داخل الرمال والقواقع الدقيقة المتكسرة المتناثرة مع قطع البوص والغاب مما جعل السيارة تهتز صعودا وهبوطا ، يمنة ويسرة مع ضيق عويس المتزايد حتى لمح رجله الذى كان فى رقابة مرسى قادما يسابق الريح وقد أدخل رأسه لاهثا فى السيارة التى توقفت :

— فوجئت به يتسلل إلى القسم ! حاولت منعه لكنه تحدانى أمام الحراس فلم أستطع أن أوقفه ! وهو الآن أمام الضابط !

صاح عويس بصوته الجهورى الأجوف :

— سعى لحتفه بظلفه ! إلى القسم !

انطلقت السيارة مخلفة وراءها سحابة من الرمال الناعمة التى لطمت

عيون بعض المارة فى الطريق حتى بلغت القسم حيث هبط عويس ومعه مساعدوه ! انتفض الجنود فى وقفة عسكرية ، وعويس يحييهم داخلا حيث كانت غرفة الضابط مفتوحة وأمامه وقف مرسى ! نهض الضابط ليشد على يد عويس ويشير إلى أحد المقاعد ليجلس عليه وهو يقول :

ـــ ابن حلال !! كنت سأستدعيك !!

ـــ القلوب عند بعضها ! خيرا ؟!

أشار الضابط إلى مرسى فى وقفته الصامدة :

ـــ قدم لى بلاغا يتهمك فيه أنت ورجالك بضرب يونس البرهومى حتى الموت ثم إلقائه فى قاع البحر !

التفت عويس إلى مرسى والشرر يتطاير من عينيه : السليمة والزجاجية :

ـــ لم أكن أعرف أنه من النوع الذى يقتل القتيل ويسير فى جنازته !! على كل حال .. جئت ومعى شهود الجريمة البشعة التى إرتكبها ويحاول بمنتهى الصفاقة أن يلصقها بالأبرياء الذى يتفانون فى خدمة البلد لوجه الله تعالى ! وسأحكى لسيادتك كل التفاصيل .. والحكم الأخير لك !!

كان مرسى على وشك أن يتكلم لكن الضابط أشار إليه بالتزام الصمت قائلا لعويس :

ـــ تفضل !

مد عويس ساقه الخشبية إلى الأمام :

ـــ العداء بين يونس ومرسى ليس أمراً جديداً .. فقد كان منافسا له فى حب حورية زوجته .. وذات ليلة تشاجرا وضربه يونس ضربا مبرحا حتى

كاد أن يقتله .. بل وهدده فعلا بالقتل .. لدرجة أنه فى صباح اليوم التالى جاء إلى سعادة البك وشكاه وطلب حمايته منه .. واستدعاه سعادة البك بالفعل وحذره من الاعتداء على أى واحد من أبناء البلد .. وكانت نية سعادة البك طيبة أكثر من اللازم !! فلم يكن يعرف أن مرسى يكن كل هذا الحقد ليونس حتى يغدر به بهذا الشكل ! برغم أنه حاول طعنه من قبل تحت الماء لولا سمكة عضته !

صرخ مرسى بصوت مبحوح أجوف :

ـــ غير صحيح !.. غير صحيح !

كان الضابط يتابع المحضر الذى يسجله أمين الشرطة فرفع رأسه وصاح فى مرسى :

ـــ لا أريد مقاطعة ! تفضل أكمل !

كانت نظرات عويس لمرسى ناضحة بالتشفى :

ـــ أتنكر أن ما قلته بالحرف الواحد صحيح وعندى الشهود عليه وفى مقدمتهم حورية نفسها التى حاولت أنت الاعتداء عليها ؟!

لم يتوقع مرسى أن يذبحه عويس بهذه السكين الباردة :

ـــ كل شىء تغير بعد ذلك .. وأصبحنا أصدقاء عمر وأخوة .. فكيف أقتل الذى أنقذنى من موت محقق يوم عضتنى السمكة ؟! وعرض حياته للخطر حتى بلغ بى بر السلامة ؟!

استدار عويس مبتسما للضابط :

ـــ عليه أن يسأل نفسه هذه الأسئلة ! لكننى أتهمه بقتل يونس البرهومى ولدى شهود عيان هنا !!

لم يعبأ مرسى بتحذير الضابط فصاح :

ــ أرسلنى يا حضرة الضابط إلى الطبيب الشرعى ليكشف على آثار الضرب على رأسى وكتفى وظهرى !

التفت عويس إلى مرسى فى سخرية قائلا قبل أن يفتح الضابط فمه :

ــ أتعلم سيادة الضابط أصول مهنته ؟! إن أى قاتل محترف مثلك يمكنه أن يحدث فى نفسه أية إصابات ثم يدعى على الأبرياء ما يشاء !

سأل الضابط عويس فى رقة :

ــ وأين شهودك ؟!

ــ أنا وهؤلاء !

قالها وهو يشير إلى الاثنين الواقفين خلفه والثالث المرابط عند باب الغرفة ، فعاد الضابط إلى السؤال ، وأمين الشرطة منهمك فى التسجيل :

ــ ماذا حدث بالضبط ؟!

حمحم عويس وقد غمر الاستسلام اليائس مرسى :

ــ بلا مؤاخذة .. فى واحدة من الرميات .. رمينا الطراحة العادية لصيد الدنيس والشراغيش .. وهذه الطراحة ذات عيون ضيقة وخالية من المصارين .. ولا بد من نزول الصيادين تحتها ليتحسسوا السمك الموجود بها لجمعه معها .. نزل خمسة من الصيادين : يونس ومرسى وعباس وعتريس وعنتر !

قاطعه الضابط متسائلا :

ــ وأين عباس وعتريس وعنتر ؟!

ــ إنهم أمامك يا سعادة البك !

استدار الضابط ليسأل مرسى :

ـــ هل هذا صحيح يا مرسى ؟!

لم يخف مرسى خلجات نبراته المرتعشة :

ـــ حتى الآن صحيح يا حضرة الضابط !

وضع عويس عكازه بين ساقيه واسترخى فى مقعده :

ـــ ونحن لا نقول سوى الصحيح يا سيادة الضابط .. المهم كنت واقفا على سور المركب أتابع الذين غطسوا فإذا بى أسمع صرخة مكتومة تبعها لون أحمر دار حول الفل الذى يحمل الطراحة .. ثم صعد الصيادون بدون يونس البرهومى الذى اختفى إلى الأبد !

صرخ مرسى بصوت ذبيح :

ـــ كذب !! كذب !! والله العظيم كذب .. ويمكنك يا حضرة الضابط استجواب كل الصيادين المشتركين فى الصيد !

نهره الضابط صائحا :

ـــ حذرتك من المقاطعة !! لن تعلمنى أصول مهنتى !

ثم لعويس فى هدوء مفاجئ :

ـــ لكن ما الذى جعلك تجزم أن مرسى هو الذى قتل يونس البرهومى ؟!

أشار عويس فى ثقة بالغة إلى الرجل الواقف خلفه :

ـــ عباس سيقص على سيادتك ما رآه تحت الماء !

تقدم عباس فى خطوة عسكرية ليقدم بطاقته الشخصية لأمين الشرطة بخبرة من اعتاد هذه الإجراءات ! سأله الضابط وهو يتأمل أسنان فكه الأعلى التى لم يعد لمعظمها وجود :

ـــ هيه ! ماذا رأيت يا عباس !

ـــ بلا مؤاخذة يا سعادة البك .. كنت مع زملائى تحت الشبكة وحولها فإذا بمرسى يخرج من حزامه مطواة قرن غزال ويعوم خلف يونس ثم ينهال عليه بطعنة فى ظهره .. عمت خلفه لكننى لم ألحق به !

كان مرسى على وشك أن يصرخ مستغيثا لكن الضابط وضع اصبعه على فمه محذرا ومنذرا فكتم هدير صدره ، وعتريس يتقدم ببطاقته الشخصية لأمين الشرطة فى حين يسأله الضابط :

ـــ وأنت يا عتريس .. ماذا شاهدت ؟!

ـــ كنت قريبا من مرسى فحاولت الإمساك به لكنه استدار ليطعننى فهربت بجلدى .. كان منظره كالوحش ولم يكن فى مقدور أحد أن يقاومه .. خاصة بعد ضياع جهدنا فى الصيد ! هذا يا فندم كل ما أعرفه والله العظيم !

استدار الضابط لعنتر دون أن يعبأ بتوسلات مرسى الصامتة ودموعه المتحجرة فى عينيه الحمراوين :

ـــ وأنت يا عنتر .. هل لديك ما تضيفه ؟!

قدم عنتر بطاقته الشخصية لأمين الشرطة وهو يقول للضابط :

ـــ كنت قريبا من يونس عندما تلقى الطعنات فى ظهره .. حاولت الإمساك به لأصعد به لكنه كان ثقيلا جدا وكنت متعبا جدا ففلت من أصابعى إلى القاع ! ألف رحمة عليه !! كان من أمهر الصيادين الذين يعتمد عليهم عويس بك فى أصعب الرميات !!

سألهم الضابط :

— هل لديكم أقوال أخرى ؟!

تداخلت إجاباتهم بأن ما شاهدوه حكوه بحذافيره فالتفت الضابط إلى مرسى الذى كاد أن يسقط فى وقفته :

— وأنت .. أين شهودك ؟!

— جميع الصيادين الواقفين على المركبين يشهدون بأنهم لم يروا أية حمرة دموية فى الماء .. كما أن يونس البرهومى خرج سليما ليصعد إلى مركبه بعد التأكد من كمية السمك فى الشبكة !

علق الضابط وقد أشعل سيجارة أمريكية قدمها إلى عويس :

— لا أريد شهود نفى لما قاله الأخ عويس والإخوة !! وإنما أريد شهود إثبات للوقائع التى ذكرتها فى بلاغك ! إلقاء يونس فى الماء بعد ضربه .. ضربك أنت حتى فقدت الوعى !

تردد مرسى ثم حاول التغلب على التلعثم :

— كان الوقت منتصف الليل .. وكان الصيادون مشغولين فى إنزال الغزل لصيد البورى .. وكنت وحدى عند المؤخرة عندما رأيت يونس يسقط جثة شبه هامدة بالقرب من الدفة .. صرخت لكن ضربة على رأسى من الخلف أفقدتنى الوعى الذى لم أسترده إلا بعد أن رحلت المراكب إلى مكان آخر !

صمت مرسى لاهثا ليرى عويس وهو يتبادل نظرات باسمة فى سخرية مع الضابط الذى سأل مرسى وهو يطلق خطا صافيا من الدخان :

— وكيف رأيت كل هذا فى منتصف ليلة غير قمرية ؟!

— كانت الفوانيس مضاءة لصيد البورى يا سعادة البك !

— إذاً .. لا بد أن يكون هناك من شاهد ما رأيته !

— لا أعرف يا سعادة البك .. يمكنك أن تسأل الصيادين كلهم .. فربما شاهد أحدهم ما رأيته برغم انشغالهم فى غزل البورى !

ضحك عويس قائلا للضابط :

— يريد من سيادتك أن تستجوب أكثر من مئتين صياد لم ير أحدهم ما ادعى أنه رآه هو ! صحيح .. الكذب ليس له أرجل !

قال الضابط لمرسى بلهجة حاسمة :

— إذاً .. ليس لديك شهود يمكن أن تحددهم الآن ؟!

تحول مرسى إلى تمثال للحيرة والقلق والضياع واليأس والمرارة فلم يدر ماذا يقول بعد أن وقع فى بئر الصمت القاتل ؛ نظر الضابط إلى أمين الشرطة الذى انكب على أوراق المحضر ليكتب كلمات قليلة ، ثم كان سؤاله الأخير :

— هل لديك أقوال أخرى ؟!

غطى اليأس الذاهل وجه مرسى فلم ينبس ببنت شفة ، فأسرع أمين الشرطة لكتابة كلمات قليلة أخرى ، وأقفل المحضر مع تحديد ساعته ، وقام عويس بالتوقيع ثم أخذت بصمات عباس وعتريس وعنتر ، وأخيرا وقع مرسى وكأن إرادته قد سلبت منه تماما وسط نظرات التشفى الناضحة من عينى عويس : الزجاجية قبل السليمة !

كانت كلمات الضابط وهو يؤشر على المحضر مثل ضربات الهراوة المطاطية التى انهالت على رأس مرسى وكتفيه وظهره من الخلف . قال بمنتهى التأنى مع كل كلمة كتبها :

— تحال أوراق المحضر إلى السيد وكيل النيابة المختص !

لم يصدق مرسى أذنيه ، إذ كيف يدخل قسم الشرطة شاهدا من أجل الحق والعدالة فيخرج منه متهما مجرما قاتلا فى انتظار أمر النيابة بالقبض عليه على ذمة التحقيق ؟! لم يعرف كيف حملته ساقاه إلى الطريق حيث رأى الدنيا كتلة هلامية من الصفرة والمرارة والضياع ؟!

أما عويس فقد خرج منتفخ الأوداج حيث كان الضابط فى وداعه حتى باب السيارة باعثا بسلامه إلى الرعاد ! ملأ عويس رئتيه بنسيم البحر الصافى النقى المنعش ، ولوح للضابط لتنطلق السيارة إلى بيت أرملة يونس البرهومى لتقديم واجب العزاء والمكافأة المالية المجزية وغير ذلك من التسهيلات التى تليق برحيل ابن بار للبلد وصياد من أمهر صيادى الرعاد !!

دخلت السيارة الفارهة الزقاق الضيق فأفسح لها المارة الطريق وهم يرمقونها بعيون نطقت بكل شيء وبلا شيء فى الوقت نفسه ، فى حين أطلت بعض النسوة من النوافذ الحديدية الواطئة لمتابعة أحداث الزقاق الذى بدا عند نهايته أمام بيت يونس البرهومى عمال انهمكوا فى غرس الأعمدة الخشبية التى سينصب عليها السرادق فى نفس مكان السرادق المتواضع الذى أقيم من قبل لإحياء حفل زواج يونس وحورية !

قالها عويس والسيارة تقف بالقرب من العمال المنهمكين فى عملهم ثم أضاف قائلا لعباس وهو يهبط منها :

— مهمة ثقيلة على القلب .. لكن لا بد منها !! فالناس لبعضها بعضا !

تناهى إلى سمعه صوت نواح صادر من البيت الذى جلست على أرض مدخله بعض النسوة المتشحات بالسواد وقد احمرت عيونهن من البكاء ،

وخدودهن من اللطم ! لمحت أخت يونس عويس يدق بساقه الخشبية وخلفه كلابه فشدت ذراعيها بمنديل كبير وصاحت : يا ميت فى عز شبابك يا خوى ! فى حين دقت أمه بكلتا يديها على صدرها وتشنجت صارخة : يا اللى كنت نوارة البلد كلها ! ويبدو أنهن قررن القيام بمظاهرة جنائزية بمجرد وقوف عويس أمامهن ؛ فعلا نواحهن وندبهن ولطمهن وصراخهن حتى صرخ فيهن عباس الواقف خلف سيده :

ـــ عويس بك جاء لمقابلة الست ! كفى !! كفى !!

أفسحن له طريقا بدس سيقانهن تحت مؤخراتهن مع استمرار الحركات الصامتة من الأيدى الملوحة بالتشنج والرءوس المهتزة بالنشيج ! لمح عويس حورية جالسة على مقعد متهالك عند قاعدته المصنوعة من البوص وقد اتشحت بالسواد من أم رأسها إلى أخمص قدميها ، ووضعت رأسها بين كفيها ! وقف أمامها قائلا بصوت أجوف حاول أن يطغى به على بكاء النسوة ونشيجهن بقيادة أم يونس وأخته :

ـــ البقية فى حياتك يا ست حورية ! كلنا لها ! أمر الله !

تظاهرت بأنها لم تسمع شيئا ، بل دست رأسها بين كفيها بشكل أكثر إحكاما ! أعاد عويس نفس الكلمات بصوت أعلى فى حين شدت عيون النسوة السوداء إليه بخيوط من عدم ، لكن حورية واصلت تشبثها بصمتها وسكونها واستمتاعها بوقفته الحرجة الخشبية أمامها ، فما كان منه سوى أن ربت على كتفها بيده الغليظة الثقيلة مكررا نفس الكلمات التى لم يكملها هذه المرة لأنها انتفضت مشدودة فى جلسة مستقيمة صارخة وكأنها لا تراه برغم عينيها المحدقتين فيه :

— اتركونى !! اتركونى !! لا حياة لى بعده !! الله يجاز الذى كان السبب !! لن يهرب من عقاب ربنا !!

ثم انفجرت صارخة مولولة نادبة حظها وهى تلطم خديها وتدق صدرها حتى ألقت برأسها على ظهر المقعد بعينين مفتوحتين وكأنها فقدت الوعى برغم نظراتها المسلطة على وجهه الصخرى ولحيته الكثة ! أسرعت النسوة القريبات منها إلى رش الماء على وجهها من صفيحة صدئة يبدو أنها استخدمت من قبل ! كان عويس على وشك التراجع والخروج لكنه تذكر أوامر الرعاد فأدار عينه السليمة فى المكان فلم يجد سوى صندوق أخضر كبير فخطا ليجلس عليه ويمد ساقه الخشبية حتى تنقشع الغمة ، وحتى لا يفقد وقاره أكثر من هذا !

بدا على حورية أنها أفاقت فعادت إلى وضع رأسها بين كفيها وكأن عويس لا وجود له بالمرة ، والذى لم يحتمل أكثر من هذا فقال بنبرات عالية شدت إليه عيون النسوة مرة أخرى :

— فعلا لن يهرب من عقاب ربنا وكذلك من عقاب الدنيا ! فقد تم القبض عليه واستجوابه واعترف أيضا !

انتفضت حورية كقوس مشدود من الغاب صائحة فى تساؤل لم يسبقه أى تفكير ؛ والعيون المذهولة مشدودة إليها :

— من ؟!

سعد عويس بنجاحه المفاجئ فى اختراق الغمة السوداء ، ففاض وجهه الصخرى [illegible]امة لزجة كالطحلب الملتصق بشبكة الصيد :

— م[illegible] !

شهقت ومعها أم يونس وأخته لكنها تمالكت نفسها وعادت إلى النشيج والولولة وهى تتساءل فى ذهول ساخن متصبب بالعرق :

ــ مرسى ؟! غير معقول ؟! متى ؟! وكيف ؟!

خيل لعويس أنه شعر بدقة خفيفة داخل الصندوق تحته ، لكنه تذكر أن مخدر الليلة السابقة قد تلاشى مفعوله منذ الصباح فطرد الخاطر المضحك وهو يؤكد لحورية التى لمحت صعقة المفاجأة فى العيون المحيطة :

ــ منذ نصف ساعة فقط اعترف بجريمته الشنيعة أمام الضابط الذى أحاله للنيابة !! ربك كبير !! يمهل ولا يهمل !!

شعر عويس بحركة أخرى خفيفة تحته لكنه تجاهلها بل نسيها وهو يرى بعض الملامح الغريبة الغامضة ترتسم على وجه حورية وكأنها تبحث عن كلمات ضائعة أو أفكار تائهة لكنها سرعان ما انفجرت صارخة مولولة نادبة حظها وهى تلطم خديها وتدق صدرها لكنه صاح فيها وهو ينظر إلى أم يونس :

ــ لا فائدة من كل هذا ! سعادة البك يرسل لك تعازيه وسيأتى للسرادق فى المساء ! أقسم ألا يتخلى عنك أبدا ! فأنت ابنته تماما !

ثم أخرج من جيبه مظروفا كبيرا دسه فى يدها ! حاولت أن تقاومه لكن يده الثقيلة الغليظة كادت تطحن يدها فرضخت دون أن تنظر إليه ! نهض وهو لا يزال يشد على يدها التى تركتها له فى استسلام لذيذ أصابه بمس ساخن بض سرى فى عروقه ، فانطلق خياله للمستقبل وساءل نفسه كيف غابت عنه هذه الأنثى الشهية أو المزة الفاخرة التى لا بد أن تتبع زجاجة خمر أو كرسى دخان من الصنف المعتبر ، والتمس العذر لمرسى الذى حاول

اغتصابها لولا يونس رحمه الله وأسكنه فسيح جناته !

لم تكن المهمة ثقيلة تماما على القلب كما ظن عند بدايتها ! لم يعد من المولد بلا حمص ! عليه أن يضعها فى اعتباره من الآن ، ويبحث عن المداخل المؤدية إلى قلبها وجسدها والتى لا خروج لها منها ، وبمجرد انتهاء الجنازة الحارة بدون مبرر ، سيفتح عينيها على عالم لم تكن تحلم به بعد أن أضاعت جزءا من شبابها الغض الساخن ما بين الغناء للمعدمين فى المقهى والزواج من المرحوم الذى ظن فى نفسه زعيما فلقى جزاءه ، فلكل فى هذه الدنيا مكان لا يمكن تجاوزه وإلا فعليه أن يتحمل نتيجة جنونه وغروره !

ترك يدها وهى تحاول سحبها من يده الثقيلة الغليظة ، وحك لحيته الكثة وهو يقول دون أن ينتظر أن تقف له احتراما :

— أمرنى البك الكبير حفظه الله بالسؤال المستمر عنك .. والتردد الدائم عليك .. وحتى بدون أمره سأفعل !! فالظفر لا يخرج من اللحم !! وستعيشين معززة مكرمة دون حاجة إلى أحد !! ولن تعودى إلى المقهى للغناء والاستجداء ! فأنت أرملة شهيد عزيز علينا كلنا !

توقف عن الكلام مستمتعا بفصاحته فعادت إلى دس رأسها بين كفيها ! اكتفى بهذا القدر ، فقال للعيون السوداء الكسيرة المحيطة به والمعلقة بعينه الزجاجية أو لحيته الكثة أو ساقه الخشبية عن قرب لأول مرة وهو يشد على يد أم يونس وأخته بحرارة متعمدة :

— البقية فى حياتكم جميعا !! إنه مصابنا كلنا !! كان المرحوم أمهر صياد شاب عند البك الكبير !! لكنه قضاء الله الذى لا راد له !

ثم عاد أدراجه بدقات ساقه الخشبية على بلاط الممر الخشن حيث كان

رجاله فى انتظاره عند الباب ! دخلوا العربة السوداء الفارهة التى خلفت وراءها سحابة من الغبار الرملى غطت النسوة عند المدخل لكنها لم تمنع أم يونس التى ضاعت أسنانها مع الأيام من أن تصرخ مولولة :

ـــ يا اللى حصلت أبوك فى نفس السنة يا نضرى !

بدأ السرادق الضخم فى اتخاذ شكله والعمال المعلقون على الأعمدة الخشبية يمدون القماش السميك المزركش بزخارف حمراء وزرقاء وخضراء تكرر زهرة اللوتس داخل مربعات ومثلثات زاهية فى ضوء الشمس المبهر ! صاحت عجوز أخرى وقد رفعت ذراعيها المعروقتين بمنديل كحلى :

ـــ يا اللى كان نفسك تشوف ابنك يا حبيبى !

فردت عليها أخت يونس بصوت غير مشروخ :

ـــ فاتها وسايبه فى بطنها ! يا حبيبى يا خوى !

فجأة بدا على حورية وكأنها تذكرت شيئا عندما شعرت ببعض الدقات الخفيفة داخل الصندوق الأخضر الكبير الذى فتحته لتلقى فيه بالمظروف الدسم ثم أغلقته فى لمح البصر ، ونهضت واقفة لتدور حول القراش كالمحمومة الذاهلة وهى تقول :

ـــ يا حبيبى ! كان ينام هنا ! كان ملء السمع والبصر ! كان دنياى كلها ! لا أستطيع أن أرى الفراش !! لا أحتمل الجلوس فى الحجرة ! سأختنق كما اختنق !

ثم ارتمت على مقعدها فيما يشبه الإغماء ، فجرت إحداهن لصب الماء على وجهها فى حين صاحت أخرى :

ـــ أخرجوها إلى الممر ! حرام تجلس هكذا فى حجرة نومه !

نهضت حورية وقد رفعت عقيرتها بالصراخ :

ــ هذا حرام ! والله حرام !

سارت إلى الممر وخلفها الجالسات وفى مقدمتهن أمه وأخته فازدحم الممر بهن ومع ذلك أفسحن لهن ، وخرجت أخريات ليجلسن على الرصيف ويتابعن نصب السرادق ، فى حين أسرعت حورية لغلق باب الحجرة خلفها وسط مصمصة الشفاه تأثرا ! تهاوت جالسة على البلاط البارد لكنها حرصت على أن يكون ظهرها سدا محكما للباب المغلق ، وشرعت تتأمل عمليات نصب السرادق الذى حجز الضوء الذهبى عن المدخل ، فاستراحت له لتتجنب سهام العيون المحدقة بها خشية أن تسجل عليها نظرة أو حركة يمكن أن تثير الشك بعد أن سارت الأمور فى طريق بلا عودة !

نهضت عجوز كانت تضع صينية من الصاج المتآكل على حجرها وقد غطتها بمنديل محلاوى ! رفعت الغطاء ليبدو بعض السمك المقلى والمشوى وفطائر الشمر والخبز الشامى الأبيض ، انحنت بها أمام حورية التى جرى لعابها لكنها سرعان ما أوقفته عند حده وهى تدفع الصينية فى رقة بعيدا عنها :

ــ لا أقدر يا خالة أم طه ! لن يدخل الأكل بطنى ! لا ترتبطن بى ! من تريد أن تأكل فلتأكل !! ومن ترغب فى الذهاب إلى بيتها لرعاية زوجها وأولادها فلتذهب !!

دارت العجوز عليهن بعد أن قالت لحورية :

ــ على راحتك ! سأحجز لك نصيبك ! الحى أبقى من الميت !

مدت واحدة يدها لتتناول قطعة من فطير الشمر ، وأخرى نصف

سمكة ، فى حين نهضت أخريات للاستئذان والعودة بعد العصر . تبادلن الأحضان والقبلات فى حين بقيت أم يونس وأخته وبعض العجائز قابعات مع عزيزتهن التى بدأت تتجمل بالصبر فلم تعد تصرخ أو تولول أو تتشنج وإنما بدت أخيرا هادئة وإن كانت نظراتها شاردة نحو المجهول !

كان كيان حورية يمور بتحولات لم تمر بها من قبل ! كان كل تفكيرها منصبا فى زوجها وابنها القادم والمستقبل الذى لا يحمل بين طياته أى بصيص من أمل ولو كاذب ! لكن بعد أول مواجهة لها مع عويس تفتح أمامها عالم مبهر طالما حدثها عنه يونس لكنها لم تكن لتفهم كلمة واحدة منه ! عالم التحدى وإثبات الإرادة فى مواجهة قوى القهر والبطش مهما كان الإنسان أعزل ! شعرت أنها أكثر دهاء من عويس المرعب الذى وقف أمامها بل وانحنى دون أن تقف له ، ولم يدرك بكل دهائه الثعبانى أنها تمثل حرقة من ترملت فى عز شبابها ! كذلك لم يخطر بباله من كان فى الصندوق تحته ! بل واستبقى يدها فى يده مصطنعا الحنان والرقة وموحيا بأن هناك من سيخلف يونس على عرش قلبها أو عرش جسدها ، وسيفتح لها أبواب الجنة والعز الذى لم تكن تحلم به ! لقد قرأت أفكاره وما يعتمل داخل صدره فلم تجد فيه هذا الوحش الجبار الذى يخافه الجميع ، وإنما مجرد كيان حيوانى يستمد بطشه وجبروته من سلطان سيده وسطوته ، ولن تقوم له قائمة فى نفس اللحظة التى ينتهى فيها الرعاد ! يظنون أن الدنيا قد دانت لهم ، ويتهمون مرسى البرىء الشهم المخلص الوفى بقتل صديق عمره ببساطة من يقول إن الشمس تشرق من الغرب ويتوقع من الجميع أن يصدقوه !

لا خوف على مرسى فدليل براءته خلف هذا الباب المغلق ، بل إن

وجوده فى الحبس قد يكون أكثر أمنا له حتى لا يغتالوه ، ويقولون بنفس البساطة إن الثعبان مات بسمه ، ويا دار ما دخلك شر بعد أن انتقم الله من القاتل السفاح ! لقد أدركت الآن أن مستقبل ابنها الكامن فى بطنها والذى بدأ هذا الأسبوع فى دغدغتها بضربات حميمة مفاجئة من حين لآخر لدرجة أن يونس لمس ضربة منها فى بطنها قبل خروجه فى الطلعة الأخيرة ، مستقبل هذا الابن لا ينفصل عن مستقبل البلد كله ، فأى أمل لطفل يولد تحت رحمة كلاب البحر ؟! وحتى إذا هربت مع زوجها لبلد آخر فمن يضمن لهما خلوه من أمثال الرعاد وعويس وربما من هم أبشع منهما ؟!

إن الموضوع فى حاجة شديدة لتفكير جديد محكم حتى لا تطيش ضربتهما ، وحتى تنفجر القنبلة فى معسكر الأعداء فتقضى عليهم قضاء مبرماً ! كم اشتاقت فى تلك اللحظات إلى الانفراد بيونس لبثه خواطرها الجديدة ، ولتقليب الأمر على وجوهه المتعددة ؟! لكن ما باليد حيلة !

استيقظت حورية من خواطرها على صوت أم يونس تقول لجارتها فى همس متسائل خائف حزين :

ـــ كيف يتهمون مرسى بهذه البساطة ؟! يقتلون القتيل ويسيرون فى جنازته !!

فردت الأخرى بهمس مبحوح استطاعت حورية التقاطه :

ـــ يبدو أن أم مرسى لم تأت للعزاء لهذا السبب !

علقت حورية وسط دهشتهن لتماسكها المفاجئ :

ـــ كان الله فى عونها ! فهو عائل البيت بعد مرض أبيه الذى قضى عليه ! لكن للظلم نهاية مهما طال !

ـــ من بقك لباب السماء يا حبيبتى !

ودارت التعليقات الهامسة ، والنظرات الصامتة ، والآهات المكتومة مع مصمصة الشفاه ، وانحناءة الظهر ، وميل الخد على الذراع المعروقة فيما يشبه الإغفاءة ، وتأمل الثقوب والفجوات فى الخطوط الترابية التى تفصل بين مربعات البلاط الخشن ، والتى خرج منها طابور للنمل أو عاد إليها محملا ببعض فتات الخبز أو بقايا صرصور أو ذرات من لحم سمكة ، فى صمت مهيب ونظام بديع ! كذلك رسم البياض المتساقط على الجدران الحجرية بفعل الرطوبة سحبا هلامية وغماما رماديا ينذر بيوم مطير لم تظهر له شمس ، خاصة بعد أن حجز السرادق بقايا الأشعة الذهبية المبهرة من التسلل إلى المدخل الرطب مما منح حورية الفرصة لاسترخاء خطوط وجهها المشدودة المتعرجة !

استراحت لدوران معظم الحديث الهامس حول ظلم مرسى لأنها كرهت إيمان الجميع بموت زوجها الذى بدأت تخاف عليه ، بل ودت أن تصرخ فى الجالسات بأنه حى يرزق ، وأنه موجود فى الغرفة المغلقة التى طردتهن منها بعد أن أوشك على الاختناق فى الصندوق الأخضر ! لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ! فقد بلغ الأمر من الصعوبة والتعقيد والخطورة لدرجة يصعب معها التنبؤ بما سوف يحدث بعد ساعة واحدة فقط ! آه لو عرف الرعاد أو عويس أن يونس البرهومى لا يزال على قيد الحياة ؟! ماذا سيفعلان ؟! وما شعور أهل البلد ؟! هل سيتحول الأمر كله إلى مجرد أكذوبة كبرى قد تقضى على مكانة يونس بينهم إلى الأبد ؟! هل يمكن أن يتهم بالخسة والنذالة لإصراره على الاختفاء كامرأة عجوز فى عقر داره فى حين يواجه مرسى

صديق عمره حبل المشنقة ؟! وهو الذى ضُرب وأصيب وفقد وعيه من أجل محاولته لإنقاذه من هجوم كلاب البحر ؟! فى حين يبدو الرعاد الآن الأب الحنون لكل أبناء البلد : يرسل إليها عويس بمبلغ يبدو كبيرا من سمك المظروف ، ويقيم سرادقا لم يشهد البلد مثيلا له من قبل سوى فى احتفالات الرعاد الشخصية ، ويقوم بالتعزية بصفة شخصية ، ويعلن على الملأ أنها ابنته التى سيحميها مثل عينيه ، ولن يسمح للعوز أن ينهشها بمخالبه بل سيحافظ عليها معززة مكرمة بصفتها أرملة الشهيد العزيز على قلبه ، العظيم فى نظره ؟! دائما يستغل كل شيء لصالحه حتى يجعلهم الخاسرين دائما !!

إن الأمر ليس بالبساطة التى تصورتها مع يونس ! فقد أصبح مأزقا لهما يحتاج إلى دهاء الحيات وحكمتها للخروج منه ! فكيف يسلك الرعاد الملوث هكذا فى وضح النهار وتحت سمع وبصر الجميع بمنتهى الفخر والكبرياء فى حين يختفى يونس حبيب الكل كفأر خائف فى جحر مظلم رطب ؟! آه ! إن رأسها يكاد ينفجر من جراء الأسئلة المتراقصة أمام حدقتيها فى عتمة المدخل دون أن تعثر على إجابة ولو غير شافية على واحد منها ! كم تاقت نفسها لانتهاء هذه المهزلة الكاذبة وهدم السرادق المزيف على رأس من أقامه !! كان الاختفاء فكرتها ، فهل تندم عليها العمر كله ؟! كان كل همها حماية زوجها سندها وأملها الوحيد فى الدنيا ، لكنها لم تعرف أن الأمور ستدخل فى هذه المتاهات المظلمة الموحشة ؟!

تركت نفسها نهبا للقلق والحيرة والضيق والندم والألم والسأم والضياع ولم تخرج من بين طيات أمواجها إلا مع آيات القرآن الكريم التى صدح بها مكبر الصوت المعلق فوق زاوية السرادق الذى تلألأ بأنوار لم يشهد البلد

مثلها ، وشرع فى استقبال المعزين مع حلول الظلام ! سرت الآيات الكريمة فى نفسها ببرد الراحة التى افتقدتها منذ خروج يونس إلى طلعة الصيد الأخيرة حين حدثها قلبها بأشياء رهيبة وخواطر كئيبة لكنها كذبته ببهجة انتصار زوجها على عويس فى معركة غسيل الغزل وصباغته ! لم تكن تدرك أنه انتصار مزيف قصد به إخفاء نواياهم الحقيقية تجاهه ، وها هو الآن يرد عليهم بموت مزيف ! فهل تنجح فكرتها التى انحرفت عن المسار الذى رسمته لها ؟!

امتلأ السرادق بالمعزين الذين تبادلوا نظرات سوداء داكنة خاصة عندما دخل مرسى الذى وقف عند المدخل ليتلقى العزاء مع أبناء أعمام وأخوال يونس ! لم تخف سمرة وجهه صفرة غريبة زحفت على عينيه وشفتيه ، وقامته التى لم تسلم من انحناءة العجائز ! كانت الصدور صاخبة بانفعالات ، وخواطر ، وأفكار ، ومشاعر ، وعواطف عاصفة ، إذا ما ألقيت فى البحر فلا بد أن يفيض ليغرق البلد بكل ما فيه ! لكن يظل البركان خامدا برغم كل ما يعتمل داخله من فوران حمم !

هبط الرعاد من السيارة الفارهة السوداء فى ملابس أولاد البلد : العباءة السوداء ، والعمامة البيضاء ، والعصا العاجية ، والمسبحة الذهبية ، ثم عويس الذى قلد ملابس سيده وإن كانت أكثر تواضعا وهو يدق بساط المدخل بساقه الخشبية وعكازه الثقيل خلفه ثم رجاله الذين أرخوا أهدابهم تظاهرا بالحزن الدفين ! شد الرعاد بحرارة على أيدى الطابور الذى نهض عند المدخل لتقبل العزاء ، لكن يبدو أنه لم يكن يعرف مرسى الذى أشاح بوجهه بعيدا وهو يعزيه ، وكأنه لم يحتمل رؤية وجهه الذى يقطر سما ! أما عويس

فقد بلغ به التأثر الفاجر أن احتضن الواقفين واحدا واحدا بما فيهم مرسى الذى حاول التملص من أحضانه الكريهة دون جدوى ! بل وبدا للناظرين أن الدمع كاد أن يطفر من عينه الزجاجية أيضا !

جلس الرعاد وعويس على مقعدى الصدارة إلى جوار المقرئ الذى واصل تلاوته الرخيمة فى حين انهمك خدم الرعاد بحللهم السوداء الأنيقة وياقاتهم البيضاء المنشية فى تقديم القهوة السادة والسجائر الأمريكية على الصوانى الفضية ! تحول الجالسون إلى تماثيل من حجر الصوان ! حتى الهامس المائل على جاره أو الناظر تجاه المقرئ أو المداعب لحبات سبحته ، كل توقف لينضم بدوره إلى صفوف التماثيل ! اغتاظ الرعاد عندما لمح من طرف خفى إصرار جميع الصيادين على رفض القهوة والسجائر ؛ حتى المياه المثلجة فى الأكواب البلورية لم تلق سوى الأيدى التى ارتفعت لتنطبق على الصدور رفضا مؤدبا لها برغم حرارة الجو المشبعة بالرطوبة السابحة فى سماء السرادق !

تغاضى الرعاد عن هذه المظاهرة الصامتة مطمئنا نفسه بأنها مجرد زوبعة فى فنجان سرعان ما تنتهى وتتلاشى مثل زوابع عديدة سبقتها ، خاصة بعد أن اختفى من كان يظن أنه يمكن أن يشكل شوكة فى ظهره ! كان البلد فى أشد الحاجة كى يمر بهذه العملية الجراحية حتى يصح جسده مرة أخرى ويستقيم ! فكيف لجسد أن يواصل الحياة وبه ورم ينزف كل ساعة صديداً وقيحاً ؟! وجع ساعة ولا كل ساعة كما اعتاد أن يقول صاحب شادر السمك الذى عمل عنده فى صباه وشبابه المبكر ، والذى كان ربيب نعمته التى لا يمكن أن ينساها له حتى الآن ! فلا ينكر الجميل سوى ابن الحرام !

واصل الرعاد الانتظار فى السرادق أطول مدة ممكنة حتى يؤكد للتماثيل السمراء الداكنة مدى معزته للفقيد ! إنه لا يزال يصر على تلقينهم درسا عمليا فى معانى الوفاء وروح الأسرة التى هو كبيرها بلا منازع ! لن يفقد الأمل فى روحه الأبوى السمح طالما أن نكرانهم للجميل قاصر على رفض القهوة والسجائر والمياه المثلجة ، أما إذا امتد ليشمله هو شخصيا فلهم الويل والثبور وعظائم الأمور ! فهم لم يروا بعد الجانب الخفى والحقيقى من كيانه العملاق ! عبثا يظنون أن يونس قد مات بجسده فقط ، أما روحه فيحوم بينهم وقد يتلبس واحداً منهم أو أكثر فيظن فى نفسه وقد خلفه فى زعامته الوهمية الكاذبة !

نظر الرعاد فى ساعة يده الذهبية فوجدها تجاوزت الحادية عشرة والمقرئ يختم تلاوته . نهض وخلفه عويس ليشد على أيدى طابور المدخل الذى انضم إليه رجاله بنفس الحرارة ! فالمصاب مصابهم أيضا ! خرج من السرادق ليقوده عويس إلى باب بيت يونس الذى أوشك أن يخلو من المعزيات ! فى ضوء المصباح المترب الخافت أشار عويس إلى حورية الجالسة على مقعد متهالك وسط أم يونس وأخته وصديقات صامتات ! نهضت متثاقلة لاستقبال الرعاد الذى شد على يدها وكاد أن يعصرها بين أصابعه لدرجة أن خاتمه الماسى آلمها :

ــ البقية فى حياتك ! إنه مصابنا كلنا ! كل ما قاله لك عويس وأكثر دين لك فى رقبتى ! والله على ما أقول شهيد !

خرج صوتها خافتا مبحوحا من شفتين ذابلتين :

ــ متشكرة ! متشكرة !

أضاف بصوت أعلى وهو لا يزال قابضا على يدها :

ـــ بابى مفتوح لك دائما وبدون إذن !

ـــ متشكرة ! متشكرة !

ترك يدها ليستدير وخلفه تابعه حتى ابتلعهما الطريق الضيق المتألق بنور السرادق الذى سده تماما ! جلست حورية مع صديقاتها ونظراتهن تقول ما قالته عيون التماثيل فى السرادق ! سمعن أقدام المعزين المنصرفين فنهضت حورية فى حزم أذهل أم يونس وأخته وهى تقول :

ـــ لن أثقل عليكن أكثر من هذا ! تفضلن مع سلامة الله !

ارتحن للاقتراح برغم ذهولهن وإصرار أم يونس :

ـــ لا يعقل أن نتركك الليلة بمفردك !

قابلت الإصرار بإصرار أشد :

ـــ لست ضعيفة كما تتصورين !

ـــ لكنك لم تتحملى منظر غرفة النوم التى تذكرك به ! فأين وكيف ستنامين ؟! لن نستطيع النوم فى بيوتنا قلقا عليك !

ـــ كنت مخطئة ! يونس لم يمت ! ابنه فى بطنى وروحه معى !

ـــ اللهم قوى إيمانك !

ـــ كان يونس أسرتى ! فأصبح البلد كله أسرتى !

قالت أخت يونس وهى تمد قدمها بخطوة تجاه الباب :

ـــ إذاً .. افتحى غرفة النوم لنطمئن على قدرتك على تجاوز المحنة !

ذهبت صديقة لتفتح الباب لكن حورية قبضت على يدها بأصابع من حديد حتى لا تشرع فى إدارة المقبض :

— لا أحب أن تعاملونى كطفلة !

عادت أخت يونس لتؤكد :

— لن نتركك إذا أصررت على غلق الغرفة !

تشجعت الممسكة بمقبض الباب فأدارته برغم أصابع حورية الحديدية والتى كادت أن يغمى عليها مع تسلل ضوء المدخل الخافت إلى الغرفة المظلمة ، لكنها سرعان ما استعادت تماسكها عندما وجدت الغرفة خالية فدخلتها بمنتهى القوة وأضاءتها وهى تسترخى على الفراش :

— هيه ؟! ما رأيكن ؟! هل لازلت ضعيفة خائفة ؟!

ومضت عيناها بوميض أخافهن فتراجعن إلى الخلف مع قول أخت يونس :

— ونحن لا نتمنى سوى ذلك !! تصبحين على خير ما دمت تصرين !

— وأنتن من أهله !

غادرت أم يونس وأخته والصديقات البيت وعيونهن عاجزة عن استيعاب وتفسير ما جرى ، وإن سعدن بعودتهن إلى بيوتهن دون خشية من لوم أو عتاب ، فقد كان إصرارها غريبا ولا يقاوم ، وتمنين من الله ألا تكون قد فقدت عقلها . كانت الصدمة كابوسا يبدو أنها لم تصح منه حتى الآن ! وهن كذلك !

أسرعت حورية إلى إغلاق المزلاج خلفهن ! عادت لتباغت بجلسته على الفراش وكأنها رأت شبحا فلاحظ هزتها :

— يبدو أنك أصبحت تؤمنين بما يؤمن به أهل البلد كلهم !!

جلست إلى جواره واحتوته بين أحضانها :

— بعد الشر يا حبيبى ! إن شاء الله كل ما يتمنى لك الشر !

— أظنك لا تنكرين أن فكرة الاختباء كانت من بنات أفكارك ؟!

— من خوفى عليك ! ليس لدى غير يونس واحد فقط ! حفظه الله لى !

تخلص من أحضانها فى رقة واضعا رأسه بين يديه :

— لا بد من التفكير فى الخطوة التالية ! فحياة مرسى ليست لعبة ! كما أننى لن أقضى حياتى فى الصندوق بعد أن أوشكت على الاختناق لولا إخلاء الغرفة ! كما أن ترك البلد والهرب منها أمر مستحيل كما ترين ! تكفينى آلام أمى وأختى !

أطرقت دون أن ترد فألقى بالطرحة السوداء من على رأسها :

— طبعا .. غلب حمارك ! ومع ذلك لن أعجز عن التفكير السليم للخروج من هذا المأزق ! فقد تقضى الصدمة على البقية الباقية من أمى !

لمحت وميض غريب فى عينيه اعتادته كلما أمسك بفكرة طارئة . سألته :

— صارحنى بما يدور داخلك !

— لم أصل إلى فكرة محددة بعد .. وإن كان علينا الآن أن نمهد لها الجو حتى تتضح لنا معالمها !

— لا أفهم شيئا مما تقول !

— لا عليك ! المهم أن الناس مشحونون الآن بما وقع وعلينا أن نستغله حتى لا يضيع أثره ونتهم بالكذب وخداع البلد كله !

ترددت قليلا ثم قالت فى شرود ويداها على بطنها المتكور :

— وأنا من يدك هذه ليدك تلك ! لكن عدنى قبل كل شىء وقبل أى شىء

ألا تخاطر بحياتك !!

— أظن أن المثل الذى يقول : أعطنى عمرا وارمنى فى البحر ينطبق تماما على ما وقع لى ! كان احتمال عودتى إليك أقل من واحد فى الألف !

احتضنته بشدة وهى تلقى برأسها على كتفه :

— اعذرنى يا حبيبى ! أكذب عليك لو قلت إننى قادرة على قهر خوفى عليك !

— ولماذا لا أخاف عليك بنفس الطريقة ؟!

— لأننى لا أمر بنفس المخاطر والأهوال !!

— لم يعد لى الآن من أعتمد عليه سواك !! ولذلك ستشاركيننى المخاطر والأهوال حتى نصل إلى بر السلامة بإذن الله !

عادت إليها جذوة المحارب التى خبرتها اليوم لأول مرة عندما واجهت عويس فصاحت بهمس غير ناعم :

— يمكنك الاعتماد علىّ تماما ! فأنا عند الجد رجل بمعنى الكلمة !

احتواها هذه المرة بذراعيه اللتين تخلصتا أخيرا من التوتر المشدود حول اللوح الخشبى حتى كاد أن يشعر بدقات الجنين :

— أجمل كلمة سمعتها من شفتيك الجميلتين !

ثم أطبق عليهما يبثهما لواعج هواه ومع ذلك خرجت كلماتها :

— لأول مرة أرى رجلا سعيدا بتحول زوجته إلى رجل !

ترك شفتيها ونبرات جادة مهمومة تغزو كلماته :

— سيكون عيدا لنا جميعا يوم يصبح أهل البلد كلهم رجالا !

لم تغب عن عينيه نظرات الدهشة المتسائلة فأجابها :

— فالرعاد يتصرف كما لو كان البلد قد خلا من الرجال تماما ! وسلوكنا يؤكد أننا مجرد نسوة عجائز أسندن خدودهن إلى أكفهن فى انتظار المقدر والمكتوب !

استرخت فى الفراش وهى تجذبه إلى جوارها فاستكان لها لكن كلماته كانت حادة كنصل السكين :

— لن يعرف النوم جفونى حتى أمسك بتلابيب الفكرة الشاردة !

داعبت شاربه الكث فقبل أناملها وهى تتساءل :

— ألا يمكننى أن أطاردها معك حتى نمسك بها سويا ؟!

— لن نعدم الوسيلة على أية حال !

سعدت عندما بدأ يتكلم بصيغة الجمع التى أكدت بحماس واضح :

— لن يخيب الله رجاءنا !

ربت على بطنها فى حنان دافق :

— لا بد من زلزال أو بركان يغرق الرعاد وكلاب البحر تحت حممه !

وفى الخارج سمعا قعقعة مفاجئة اخترقت سكون الليل ، لكنهما سرعان ما أدركا أن أعمدة السرادق تتساقط الواحد بعد الآخر حتى ينتهى العمال من حملها بأسرع ما يمكن ، خاصة بعد أن أطفئت الأنوار الساطعة وساد الظلام الذى اعتاده أهل البلد !

ـــ فقدت المسكينة عقلها !

ترددت الجملة على ألسنة أهل البلد فى رواحاتهم وغدواتهم ، فى جلساتهم عند مداخل دورهم تلمسا لنسمة خالية من الرطوبة والبلل ، فى سيرهم الوئيد على الساحل عند العصر وقبل الغروب ! كان حديثهم بين كل طلعة وأخرى قاصرا على سطوة الرعاد وبطش كلابه ومحاولات يونس اليائسة لإشعارهم بأن فى الساحة رجالا ذوى كرامة وكبرياء ، بالإضافة إلى بعض أحداث آخر طلعة إذا كانت تستحق الرواية ! أما الطلعة الأخيرة فقد أضافت إلى أحاديثهم ما تعلق بألسنتهم ليل نهار : غرق يونس وسجن مرسى الذى تم حبسه رهن التحقيق وأخيرا وليس آخرا جنون روحية الذى احتارت فيه العقول ، وشكل تحديا خطيرا لم يمر الرعاد وعصابته بمثله من قبل !

اعتاد أهل البلد الاستيقاظ كل فجر على صرخات ولولة ذبيحة تشق السكون وتقتحم نوافذهم وتنفطر لها قلوبهم ! فيسرع الرجال إلى فتح النوافذ بعيون كسيرة ، والنساء إلى فتح الأبواب والخروج اللاهث خلفها حتى لا تلقى بنفسها فى البحر كما حاولت من قبل لولا محاولاتهن المستميتة لمنعها ! كانت تنطلق كالسهم بثوبها الأسود الطويل حتى تبلغ المياه أسفل بطنها ، والنسوة المذهولات حولها : أم يونس تجذبها من ذراعها ، وأخته

تحتضنها بعنف ، وأخرى تكاد تحملها من ساقيها حتى يتكاثرن عليها فى النهاية وسط ضربات الأمواج الساحلية ، ثم يجلسن حولها على الرمال المبتلة ، والرطوبة تتسلل إلى بطونهن فى محاولات أخرى لمنعها من وضع الرمال فوق رأسها ، وتلطيخ وجهها بها ، ولطم خديها وهى تولول :

— دعونى أموت ! لا حياة لى من بعده ! فليبتلعنى البحر الذى ابتلعه !

وتلهج ألسنة النسوة وتتضرع إليها بالهدوء والسكينة :

— الله يهديك ! فهو ابنى أيضا !

— نحن فداؤك ! إنه أخى كما هو زوجك !

— كلنا لها !

— أين إيمانك ؟!

— الله لا ينسى أحدا !! أعطى وأخذ فلا رد لقضائه !

— لا فائدة من كل هذا !

— اللهم لا اعتراض !

— إلى متى ستظلين هكذا ؟! التفتى إلى صحتك من أجل طفلك !

وتظل دوامة النحيب والندب حارة فوارة مع لطم الأمواج الهادرة على الساحل المستسلم لها ، حتى تهدأ وتستكين لهن فينهضن بها ليعدن فى نفس الموكب الجنائزى الحزين اليومى ، ونظرات العيون الحانقة تصب اللعنات على من كانوا السبب فى هذه المصيبة ، وتلتمس العذر لحورية التى لم تحتمل ضياع زوجها الذى أستغل للقضاء على مرسى أيضا ! فشياطين جهنم الحمراء تعجز عن التآمر الخسيس الذى نسجه الرعاد وكلاب البحر !

تقبل الرعاد الأمر ببساطة فى بدايته ، فالأيام كفيلة بإذابة الحجر نفسه !

لكن الأمور سارت بعكس ما تصور تماما ! كانت تتصاعد يوما بعد يوم حتى أوشك البلد أن يتحول إلى بركان يغلى فى كتمان ! فقد أصبحت حورية مأساة حية متجددة تنكأ بصراخها الكئيب الجراح التى يجب أن تندمل بأسرع ما يمكن ، لا أن تتسع وتتقيح !

اقترح عويس على سيده التخلص منها بتخديرها وحملها ليلا لإلقائها فى البحر بحيث تحمل الأمواج جثتها إلى الساحل فيظن الجميع أنها نجحت أخيرا فى تنفيذ تهديدها فى غفلة من نساء البلد ! لكن البركان المكتوم أكد للرعاد أن النظرات التى تتهمه بإغراق يونس وحبس مرسى يمكن أن تتحول إلى ألسنة حادة صريحة توصمه بقتلها هى الأخرى ، خاصة وأنها اعتادت الصراخ فى كل مرة تهرع فيها إلى البحر وكأنها تعلن عن ذهابها لتتجمهر حولها النسوة ! فلماذا صمتت فى المرة التى غرقت فيها فعلا ؟! هل يمكن أن يكون ما تفعله عن عمد ؟! وهل يمكن أن يصل تفكيرها إلى هذا الحد الخطير ؟! أم أن هناك من يخطط لها برغم أن التحريات أثبتت عدم اتصالها بأحد فى اعتكافها الغريب فى بيتها ؟! كلها أسئلة حائرة أشعرت الرعاد بالعجز لأول مرة فى بحثه الدءوب عن إجابات شافية عنها !!

هداه تفكيره المحموم إلى ركوب موجة الاعتقاد السائد بأن الصدمة أفقدتها عقلها ، وفى الوقت نفسه الظهور فى ثوب الأب الحنون الذى لا بد أن يفى بوعده لابنته بحمايتها ومساندتها حتى تستعيد حياتها الطبيعية ! قرر أن يستدعى لها من القاهرة طبيبا للأمراض العصبية والنفسية لرعايتها ، بالإضافة إلى طبيب للتوليد وأمراض النساء لمتابعة الجنين !

هلل عويس للاقتراح الذى أوحى إليه برشوة الطبيب ليكتب تقريرا

يثبت جنونها بعد الكشف عليها ، ويمكنهم من إرسالها إلى القاهرة لإيداعها مستشفى الأمراض العقلية بلا عودة طبعا ! على ألا يُذكر أمامها طبيب الأمراض العصبية والنفسية حتى لا تركب رأسها وترفض الذهاب ! أما طبيب التوليد وأمراض النساء فخير وبركة ! أما الأمر العجيب الذى أذهل الرعاد أن حورية لم تبد أية معارضة فى التوجه إلى الوحدة الصحية لإجراء الفحوص اللازمة ، وإن كانت قد تعجبت للطبيب الثانى الذى ظل يسألها أسئلة غريبة عن الكوابيس التى تنتابها فى الليل ، والأفكار التى تنهشها فى النهار ، والمخاوف التى تدفعها إلى البحر لإلقاء نفسها فيه ، والآلام التى مرت بها فى طفولتها ، والأسباب التى تزين لها العزلة والانطواء على نفسها فى بيتها ، ونوعية علاقاتها بالآخرين ، وشعورها تجاه حبس مرسى الذى قد يواجه الحكم بالإعدام ! ومع كل هذه الأسئلة فإنها أجابته ببساطة تلقائية ارتاح لها الطبيب بل واكتفى بها !

كان التقريران مثيرين لخيبة أمل الرعاد ! فقد أكد التقرير الأول على صحة الجنين وقدرة الحامل على الإنجاب الطبيعى ، أما الثانى فنفى عن حورية أية شبهة جنون ، وعلل ما يجرى لها بأنه نتيجة لصدمة عنيفة يمكن أن تمر بها أية امرأة أخرى فقدت عائلها الوحيد فى الحياة فى وقت كانت فيه تتفتح لسعادة زوجية مرتقبة وهى تحمل طفله ! أما ذهابها إلى البحر وتهديدها بالغرق وتلطيخ وجهها بالرمال ولطم خدودها ، فهو سلوك ارتبط بالمرأة المصرية التى تفقد زوجها بهذا العنف والشراسة ، وسجلته الرسوم الملونة أو المحفورة على جدران المقابر والمعابد الفرعونية !

كاد الغيظ أن يقتل الرعاد فهرع عويس إلى الطبيب لينتحى به جانبا

ويخبره بأن إيداعها مستشفى الأمراض العقلية خير ضمان لها وللبلد ! كان الطبيب قابعا فى مقعده بالقطار الذى سيقوم بعد لحظات إلى القاهرة ! طمأن عويس إلى أنه كتب لحورية بعض الأقراص المهدئة الخفيفة التى تساعدها على اجتياز الأزمة كلما اشتدت بها ! أخرج عويس من جيبه مظروفا ضخما حاول أن يدسه فى جيب الطبيب الذى أعاده إليه بعصبية ، وهو يؤكد له أنه حصل على أجره ، وأن مهمته انتهت عند هذا الحد ! وعندما اضطر عويس إلى مصارحته بتقديم خدمة مقابل خدمة ، انتفض الطبيب واقفا مهددا بإبلاغ السلطات ! احتار عويس ماذا يفعل ؟ لولا جرس المحطة الذى دق إيذانا برحيل القطار ، وصوت الطبيب يكاد يجلجل : « تفضل .. مع السلامة من غير مطرود » !

تحرك القطار وعويس يقفز منه بساقه الخشبية التى أوشكت على السقوط به بين الرصيف والقطار ! سار يدق الرصيف بعكازه ، وهو يسب ويلعن ويتهم نفسه بالغباء ! كان لا بد أن يفهم نوعية هذا الطبيب الذى أصر على القدوم والذهاب بالقطار برغم إلحاح الرعاد عليه باستخدام إحدى سياراته المريحة الفارهة !! اللعنة ! إنه يذكره بيونس الذى يبدو أن موته قد فاق حياته فى المشكلات والمناعب التى تسبب وسوف يتسبب فيها ! بصق على الأرض وهو يسأل نفسه : ألا يزال هناك بشر لا يمكن شراؤهم ؟!

فى كل هذا كانت حورية التلميذة المطيعة ليونس البرهومى ، خاصة بعد أن أشعل داخلها روح المحارب ! لكن ما أقلقها أنها كانت واثقة من أنه لم يفتح لها قلبه برغم كل الأسئلة والمناورات التى تعلمتها فى الأيام القليلة

الماضية ! وكانت آخر مرة عندما عادت من الكشف الطبى وكان قلقا أكثر من اللازم على غير عادته ! سردت ما جرى فاستراح بعض الشىء ، لكنه أكد لها أن هذه هى آخر مهمة تقوم بها حتى لا تتحول إلى هدف من الأهداف التى يسعى الرعاد للقضاء عليها ، فهو أدرى بهم وبما يدور فى عقولهم ! أعلنت رضوخها التام لأوامره لكنها رجته أن يصارحها بما فى رأسه ، فرجاها بدوره ألا تقلق عليه فهو حريص على نفسه حرصها عليه تماما !

لمحت فى يده الكتاب الذى اعتاد أن يقرأه فى الأيام الماضية وعليه صورة الرجل الأصلع ذو النظارة السلكية المستديرة ، والجسد النحيل الملتف فى قطعة من القماش الأبيض ، والعصا المقطوعة من الغاب ، فعادت إلى أسئلتها المناورة :

ـــ من هذا الرجل الذى تقرأ عنه بهذا الشغف ؟!

ـــ إنه غاندى !

ـــ هل استطاع هذا العجوز النحيل أن يفعل شيئا حتى يكتب عنه ؟!

أدرك ما يدور فى رأسها فابتسم هامسا :

ـــ أبداً .. لم يقتل فى حياته ذبابة !! ومع ذلك هز الإمبراطورية البريطانية فى عز مجدها وأجبرها على منح الهند الاستقلال !

لم تخف نبرة السخرية المتسائلة من كلماتها :

ـــ لا بد أنه كان ساحرا خطيرا ؟!

ـــ فعلا .. كان خبيرا بسحر لا يعرفه سوى القلة القليلة من الناس !!

ـــ منك نستفيد ! لا بد أنه كان على علاقة بأخطر الشياطين والأبالسة

حتى يفعل ما فعل !!

ــ فعلا .. كان لديه سحر خطير اسمه القدوة والوعى فسار خلفه شعب الهند كله وتحول إلى طاقة متفجرة حتى نال حريته !

ــ وكيف كانت نهايته ؟!

فوجئ بالسؤال الذكى المباغت ، لكنه تجنب إلقاء حجر فى بحيرة القلق التى تكاد حبيبته أن تغرق فيها :

ــ أبدا .. مات مثل زعماء كثيرين .. فى سن متقدمة !

وحمد الله أنها لا تعرف شيئا عن سيرة غاندى ونهايته المأسوية على وجه الخصوص ، لكنها لم تستسلم كعادتها :

ــ وهل تظن أنك ستصبح قدوة للصيادين الذين يترحمون عليك الآن ؟! لا بد أنك قررت الظهور والعودة إليهم بطريقة أو بأخرى ؟!

انتهز يونس فرصة السؤال المباشر :

ــ وهل تظنين أننى سأقضى عمرى فى صندوق حتى أتحول إلى ميت بالفعل كما أراد الرعاد ؟! وعلى أحسن الفروض مختبئا فى غرفة لا تفتح نافذتها ولا يضاء مصباحها ، ولا يرتفع صوتى فيها حتى لا يشك أحد المارة فى شيء ؟! لا .. يا حورية .. لقد قررت الظهور والعودة إليهم بالفعل .. ولذلك فإن آخر مهمة أطلبها منك .. أن تذهبى إلى عم عبد الرحمن فى المقهى أو بيته وتعودى به إلى هنا !!

شهقت بدقة على صدرها :

ــ ماذا قلت ؟! اللهم اجعله خيرا !!

ــ لن نضيع الوقت فى المناقشة !! ثقتى فى عم عبد الرحمن عمياء !!

وسرى معه فى بئر ! وأنا فى انتظاره !

— عندك حق !! لكن ماذا سأقول له ؟!

— لم يمنع نفسه من ضحكة عابرة خافتة :

— أبدا ! قولى له إن يونس البرهومى فى انتظار تشريفه !

جارته فى دعابته الساخرة :

— لا بد أنه سيسعد كثيرا بلقاء مثل هذا بعد هذه الغيبة الطويلة ؟!

عاد إلى لهجته الجادة المهمومة :

— قولى له إنك تريدين أن تأخذى رأيه فى أمر خاص بالرعاد !! وفى الطريق مهدى له الموضوع .. وأنا واثق أنك لن تعدمى الوسيلة !

سعدت لثقته فى قدراتها النامية التى أصبحت تكتشفها يوما بعد يوم !

نهضت من جلستها أمامه وهى تضع الطرحة على رأسها :

— هل ستقول له عن قرارك ؟!

لم يكن يعرف أنها يمكن أن تباريه فى دهائه :

— أبدا .. سأحاول أن أستشيره ! فأنا أحب حكمته وبعد نظره !

— ربنا معك !! هذا هو كل ما أستطيع أن أقوله !!

وضعت قدميها فى الخف واستدارت لتخرج وتغلق الباب خلفها بالمفتاح وهى تنظر يمنة ويسرة ، فوجدت بعض الوجوه التى تجنبتها وهى تلمحها فيما يشبه الخوف والحرج ! استراحت لهذا السلوك ، فليس لديها شيء تقوله لهم وذلك برغم شكهم فى قواها العقلية ! لكن ماذا سيقول عم عبد الرحمن عندما تخبره بالسر المذهل ؟! سيصبح أمر جنونها مؤكدا وربما غافلها وهرب منها ! فهو لا يعرف ما سوف يجرى له فى بيتها عندما تغلق بابه

عليه ؟! ومع ذلك لا جدوى من التفكير المتواصل وتقدير ما يمكن أن يقع قبل أن يقع ، فلا أحد يعلم ما إذا كان سيقع أم لا ؟!

أسرعت من خطاها دون أن تلتفت إلى النظرات الخاطفة حولها ! بدا المقهى قابعا على الربوة الصخرية التى تنحسر عند أقدامها أمواج البحر المتلاطمة بزبدها الأبيض وفقاقيعها البلورية ، والتى تحجب خلفها الشمس التى مالت بقرصها الذهبى فى طريقها إلى خط الأفق المتألق بها . عشش الصمت على رءوس الجالسين وهرع عامل المقهى إلى إسكات أغنية شعبية من جهاز تسجيل ! مسحت حورية الأركان بعينيها :

— سلامه عليكم !

ترددت وتنوعت الردود بين أصوات خفيفة ونبرات عالية ممزوجة بذهول وحرج واضحين ! لكن حورية سألت بصوت واضح :

— أين عم عبد الرحمن ؟!

استدار عجوز حجبه عامود حجرى فى ركن قصى ليواجه حورية الواقفة بباب المقهى ، وهواء البحر يكاد يطير بطرحتها التى أمسكت بتلابيبها :

— نعم .. يا بنتى ! تحت أمرك !

— أريدك فى موضوع ضرورى يا عم عبد الرحمن ! إذا لم يكن لديك مانع ؟!

نهض العجوز ولحيته البيضاء الخفيفة تضىء سمرة وجهه الداكنة :

— نحن كلنا فى خدمتك !

هبطت حورية على المنحدر الصخرى للربوة حتى تنأى بالعجوز بعيدا

عن العيون المسلطة عليهما ! سار إلى جوارها فى حذر وهو يرمقها من حين لآخر منشغلا بخطوات حذائه الغائصة فى الرمال الناعمة الطرية حتى قالت له :

— أرجو أن تستمع لى يا عم عبد الرحمن حتى أنتهى من كل ما أريد قوله !! فهو غريب بل وخطير ولا يخطر ببال أحد !

ومضت عيناه بوميض الظنون والشكوك التى لمحتها من قبل فى عيون أهل البلد فأكدت له بنبرات واثقة واضحة :

— كما أننى أعرف ما تفكر فيه الآن !! فأنا لست مجنونة كما يظن أهل البلد !! لكن قبل أن أفتح فمى بالسر .. عدنى بأنه سيظل سرا بيننا !

خرجت نبراته مرتعشة وكأنها تبحث عن كلمات تملأ فراغ انتظار الإجابة :

— أعدك بأى شيء يا بنيتى ؟! فما مررت به يهد الصخر !!

سحبت نفسا طويلا حتى تستعين به على طوفان كلماتها :

— ما مررت به كان خطة محكمة اتفقت عليها مع يونس حتى يهرب بجلده من بطش كلاب البحر بعد أن كان الرعاد قد قرر قتله بإغراقه حتى يبدو الأمر قضاء وقدراً .. لكنه أراد بعد ذلك أن يضرب عصفورين بحجر واحد فوجه التهمة إلى مرسى !

صمتت لتلتقط أنفاسها اللاهثة ، فما كان من العجوز سوى أن توقف والذهول فى عينيه يمنع الكلمات من السقوط من لسانه . استأنفت :

— أعرف أن الأمر ليس سهـــلا ! ولك الحق كل الحق فى عدم تصديقى !! لكن دليلى عليه أنك ستقابل يونس الذى يجلس فى انتظارك الآن ليسألك المشورة فى الخطوة القادمة !!

خرجت كلماته حائرة ضعيفة مرتعشة لكنها لم تخل من الشك :

ـــ لا أعرف ماذا أقول لك يا بنتى !! فكل شىء جائز فى هذا الزمن الغريب !! لكن إذا كان ما تقولينه حقيقة فنحن قادمون على أيام مرعبة !!

ـــ قال لى يونس إن أحدا لا يستطيع أن يهرب من مصيره .. والشاطر من يواجهه بشجاعة !! فالشجاع يموت مرة واحدة فقط . أما الجبان فيموت فى اليوم الواحد ألف مرة !

استأنفا سيرهما وقد عاوده بعض الطمأنينة ، وإن ظل تحت وطأة الذهول الذى نثر أفكاره وكلماته هنا وهناك :

ـــ لكن كيف نجا من مؤامرة إغراقه فى منتصف الليل ؟

ـــ ألقى إليه مرسى بلوح خشبى استطاع أن يعوم به حتى الشاطئ !!

ـــ لا شك أنها معجزة !! لكن يونس ليس من النوع الذى يختفى فى حين يواجه مرسى الذى أنقذه .. الموت ؟!

ـــ لا أخفى عليك ! فأنا لا أعرف ما يدور حقيقة فى ذهن يونس .. وإن كنت أشعر بأنه مقدم على عمل كبير وخطير للغاية .. نجاه الله من عواقبه ! أما مرسى فلا بد أن يكون فى اعتباره !

انحرفا يسارا ليدخلا الزقاق الضيق وهما يتجاهلان النظرات الخاطفة كالسهام الطائشة ، فى حين ظلت نبرة الشك عالقة بحروف كلماته :

ـــ أى عمل كبير وخطير فى حاجة إلى أسلحة كبيرة وخطيرة ! ويونس لا يملك شيئا !! حتى نفسه !! فهو ميت فى نظر الكل !

ـــ يونس ليس من النوع الذى يعيش فى الأوهام الكاذبة !! وأنت أدرى به يا عم عبد الرحمن !! مصيبتى أننى عجزت عن معرفة ما ينوى عليه !

— وفى أى شيء يريد مشورتى ؟!

— هذا ما ستعرفه منه شخصيا !

توقفا أمام الباب لتخرج حورية المفتاح الحديدى الذى أدارته فى الثقب غير عابئة بسهام النظرات المنطلقة من خلف النوافذ التى تظاهرت بأنها مغلقة ! دق قلب العجوز دقات الإثارة التى ذكرته بأيام الشباب التى غربت شمسها منذ زمن بعيد ، وهو لا يكاد يصدق أن ما يمر به حقيقة واقعة بعد أن اختلطت عليه الأمور ، وأفقدته صفاء الفكر وحكمة السن والتجربة ! دخل فأغلقت الباب خلفه بالمزلاج ! لم ير شيئا على الإطلاق مع انتقال عينيه من شمس الزقاق إلى عتمة المدخل ، ورعشة رطبة تسرى فى عروقه مع صوت حورية :

— يونس .. يونس .. عم عبد الرحمن وصل بالسلامة !

لمح العجوز شبحا يتحرك عند عتبة باب الغرفة ، ومع تعود عينيه على عتمة البيت ، تعرف على يونس الذى أقبل عليه بالأحضان والقبلات والدموع والكلمات المتهدجة :

— لم أمت يا عم عبد الرحمن .. أنا حى أرزق !

طفرت من عينى العجوز الدموع التى ظن أنها جفت إلى الأبد :

— روت لى حورية كل شيء يا حبيبى !! لا أصدق أنك فى أحضانى وأن ما وقع كان مجرد كابوس استيقظت منه !! ألف حمد وألف شكر لك يا رب !! نحن فعلا فى زمن العجائب !!

قاد يونس الشيخ الحبيب إلى غرفة النوم قائلا لحورية :

— جهزى لنا شيئا لنأكله !

كان عم عبد الرحمن على وشك أن يعترض لكن سرعان ما سحبه يونس إلى داخل الغرفة التى أغلق بابها عليهما ! أجلسه على الصندوق الأخضر فى حين قبع قبالته على الفراش ! فك العجوز عقدة لسانه وسأله :

ـــ لكن كيف نجحت فى الاختفاء كل هذه المدة ؟!

ـــ فى هذا الصندوق ! لكن ليس هذا هو المهم الآن ! المهم أننى عرفت أنكم خارجون للصيد فى الفجر !!

ثم تحولت كلماته إلى همسات مبحوحة وهو يرمق الباب المغلق :

ـــ لكن عدنى أولا أن ما بيننا سيظل سرا حتى على حورية نفسها !

ـــ أعدك بأى شىء وبكل شىء !! الله وحده يعلم بمكانتك عندى .. وبشعورى وأنا أرى ابنى عائدا مرة أخرى إلى الحياة !

مال يونس بالقرب من أذنه :

ـــ ما فكرت فيه لا رجعة فيه !! وما وقع فى الأيام القليلة الماضية علم الناس عمليا أن الاستسلام لا يلد إلا مزيدا من الاستسلام ! وأن ما جرى لى ولمرسى يمكن أن يجرى لأى واحد منهم ! وهذا الوعى الجديد فى حاجة إلى قدوة كى ينطلق المارد من القمقم !

صمت يونس ليرى وقع كلماته على وجهه السمح الطيب :

ـــ ليس من حقى أن أجبرك على التصريح بما تريد كتمانه ! لكن كل ما أرجوه أن تلتزم الحرص قدر الإمكان ! فالإنسان لا يموت إلا مرة واحدة فقط !

ابتسم الشيخ الجليل فى جملته الأخيرة فاستجاب يونس بابتسامة عذبة :

ـــ لم أود بطبيعة الحال أن أحملك مشقة ما سأطلبه منك !! فكرت مرارا

فى أن أنهض بكل شيء بنفسي .. لكننى وجدته أمرا مستحيلا لأنه قد يتسبب فى فشل كل ما خططت له !!

جرت فى نبرات الشيخ حمية ، وومضت فى عينيه عزيمة قديمة :

ــ أطلب ما تشاء !! فلم يتبق فى عمرى ما أحرص عليه !

ربت يونس على كتفه فى حنان دافق :

ــ أطال الله عمرك ! فأنت لنا خير وبركة !! المهم .. هل قاربى لا يزال مربوطا فى مكانه ؟!

ــ لم يمسسه أحد منذ أن هبط علينا الخبر المفجع كالصاعقة !

ــ عظيم .. وأظن أنك ستكون غدا على مركب عويس كالعادة !

ــ أظن ذلك !! خاصة أن هذه أول طلعة بدونك !

مال على أذنه هامسا مرة أخرى :

ــ كل ما أرجوه منك يا عم عبد الرحمن أن تختلى بالصيادين واحدا بعد الآخر بمجرد خروج المركب إلى البحر .. بعيدا عن عيون كلاب البحر بقدر الإمكان .. وتخبرهم أننى لم أمت .. وسأظهر لهم شخصيا على المركب الرئيسى !

بحث عم عبد الرحمن عن كلمات مناسبة فلم يجد سوى هذه الألفاظ الحائرة المترددة فى تساؤلات شاردة :

ــ وماذا ستفعل عندما تواجه الكلاب ؟! وما فائدة إفشائى السر للصيادين ؟! لا أكاد أفهم شيئا ! كذلك لن يصدقنى أحد وربما اتهمونى أنا أيضا بالجنون !

ــ كل ما أريده تمهيد الأذهان لظهورى .. حتى لا يظننى الجميع شبحا

فيفسد كل شيء ! فربما ركبهم الذعر ولم أجد من يلقى لى حبلا أصعد به !

— وما موقف كلاب البحر عندما يرونك ؟!

— سيسيطر عليهم الظن بأننى شبح فعلا .. ولو لفترة قصيرة أتمنى أن أقلب فيها الدفة ضدهم !

— كيف بالله عليك ؟! ما قلته لم أسمع بمثله من قبل !!

— أشعر أن الله لن يتخلى عنى كما حفظنى من قبل على اللوح الخشبى !

— ونعم بالله يا بنى ! سيكون غدا يوما مرعبا لا يعرف أحد له نهاية !

— علمتنى المحنة أن الإنسان لا يقدر أن يعرف نهاية اللحظة التى يعيشها !

— غيرتك المحنة كثيرا !

— يمكنك أن تقول أنها كانت لحظات مقدسة اكتشفت فيها نفسى .. وما يجب أن أفعله ؟!

لم يستطع عم عبد الرحمن أن يمنع نفسه من التساؤل :

— وما الذى تنوى فعله ؟!

بدا على يونس كأنه يبحث عن إجابة، لكن تردده لم يطل إذ سمع دقات على الباب فقفز ليفتحه وتدخل حورية حاملة صينية أمام بطنها المتكور . وضعتها على الصندوق إلى جوار عم عبد الرحمن الذى تمنى أن يطلب يونس من زوجته الخروج ولو للحظات لعله يصارحه بما ينوى أن يفعله ، لكنه لم يفعل ! تركها تجلس إلى جواره لتباشر حسن ضيافتها بتقطيع شرائح السمك وتقديمها على خبز ممزوج بطحينة الخل والثوم . سألت حورية عم عبد الرحمن :

— هل فتح الله عليكما بحل ؟!

انهمك الشيخ فى مضغ الشريحة المقلية بأسنان تساقط معظمها بحثا عن إجابة تقنعها وترضى زوجها فى الوقت نفسه :

— الله يفعل كل ما فيه الخير لأبنائه المخلصين !

— ونعم بالله !

خرجت من بين شفاه حورية ويونس فى وقت واحد ، ثم انهمك ثلاثتهم فى التهام الطعام بشهية لم يعرفوها منذ أيام طويلة بعيدة ، كما انهمكت حورية فى محاولة مستميتة لقراءة الوميض الغريب فى عيونهما ، لكنها عند الانتهاء من الطعام سلمت أمرها لله !

أقلعت المراكب فى عتمة الفجر الرمادية لتبتعد عن الحافة الرملية التى ظلت تضيق وتهبط حتى اختفت أخيرا تحت الفضة الرصاصية الداكنة لمستوى البحر ، ولم يبق فى الأفق سوى عتمة الصحراء المتربة ! أيقظت المحركات بضجيجها طيور النورس التى حامت حول المراكب لكنها سرعان ما رحلت عنها ، طائرا تلو الآخر وهى تطلق صياحها المتقطع الحزين مع أول خيوط الفجر ! أحاط الضباب بوجوه الصيادين التى ازدادت صرامتها المتغضنة المثبتة على المجهول الذى يتأرجح مع تهادى المراكب وأزيز محركاتها التى اشتركت مع حفيف الأمواج فى ملأ فراغ السكون الذى حامت حوله ذكرى يونس وصورته المتفائلة وصوته الواثق القوى ! كانت أول طلعة بدونه فتحولت المركب إلى سرادق عائم للعزاء لولا تنقل عم عبد الرحمن من حين لآخر بين الصيادين ليتجاذب معهم أطراف الحديث الهامس الذى أثار شهية كلاب البحر للتصنت فحاولوا متابعته ! وهم يحملون لأول مرة الخناجر والمسدسات بالإضافة إلى الهراوات المطاطية !

فى جلساته الهامسة على الألواح الخشبية ، وتنقُله بين صياد وآخر تراوحت كلمات عم عبد الرحمن بين :

ــ سمعت أن يونس لم يمت ! أنقذه لوح خشبى ألقاه إليه مرسى !

ــ لا تصدق يا عم عبد الرحمن أى كلام فارغ تسمعه !

ويحاول مع صياد آخر :

ـــ يقولون إن يونس اختفى فى صندوق أخضر كبير فى بيته بعد أن ألقى به اللوح الخشبى على الشاطئ !

ـــ إذا كان هذا صحيحا .. فلماذا اختفى ؟! وحبل المشنقة فى انتظار المسكين مرسى ؟!

ويشيح الصياد بوجهه بعيدا فينتقل عبد الرحمن إلى آخر :

ـــ قالت لى حورية إن يونس سيصل اليوم إلى المركب !! فهو لم يغرق كما يظن الجميع !

ـــ أعرف يا عم عبد الرحمن مدى حبك للمرحوم يونس !! لكن أرجو ألا يصل حبك له إلى حد الأوهام !!

التزم الصياد الصمت فهمس عبد الرحمن فى أذن آخر :

ـــ لن تصدقنى إذا قلت لك إننى شاهدت يونس بالأمس لكننى لست واهما كما تظن ! سترونه اليوم جميعا !

ابتسم الصياد فى رثاء وربت على كتف الشيخ دون كلمة ! فما كان منه سوى أن التفت إلى ثلاثة أو أربعة صيادين صامتين ليتخلى عن همسه لأول مرة :

ـــ لكم العذر كل العذر فى ألا تصدقونى ! لكن لى رجاء واحد ! عندما ترونه قادما فى قاربه لا تظنوه شبحا ! إنه يونس بشحمه ولحمه !

انطلقت ضحكة عربيدة كادت أن تطغى على صوت المحرك ، وإذ بعباس المختفى خلف الصارى يسرع إلى قمرة المركب حيث أغفى عويس قليلا لكنه تنبه على وقع أقدام عباس على الدرجات الخشبية القليلة وهو يقول :

— تصور يا ريس .. عبد الرحمن جُن !! يقول للصيادين إن يونس حى يرزق !! وسوف يظهر اليوم على المركب !!

أطلق عويس ضحكة مشروخة وحك لحيته الكثة :

— ربما أثقل من الحشيش أمس ؟!

— إنه لا يدخن سوى المعسل !

— ضع عينيك عليه ! فهذا العجوز خبيث وأنا أدرى به ! ربما كان يسعى إلى اثارة الأولاد علينا !

— لم يصدقه أحد منهم ! واعتبره البعض مجنونا !

خرج صوت عويس حادا كطلقة رصاص :

— نفذ ما أمرتك به !

— حاضر يا ريس !

وتلاشى عباس من القمرة ليحوم حول عبد الرحمن الذى التحف بالصمت وأنوار الفجر تفتر عن ثغرها فى الأفق حيث تسترخى السماء على صفحة الماء !

أما يونس محور الأحاديث الهامسة والخواطر الشاردة والذكريات الحميمة ، فلم ينم ليلته ! لم يتقلب فى فراشه حتى لا تشعر به حورية التى ظلت يقظة بدورها وإن تظاهرت بالنوم الذى غلبها قبل بزوغ الفجر بقليل ! وإن بدت وكأنها ترزح تحت كابوس طفح على لسانها فى كلمات متناثرة متقطعة : الرعاد !! من أجل خاطر ابنى !! ليس لنا سواك !! ثم استسلمت لشخير خفيف من فمها نصف المفتوح !

نهض متسللا فإذا بها تسأله وكأنها تحاول الانسحاب من تحت طيات

النعاس المتثاقل :

— إلى أين ؟!

— إلى دورة المياه !

وقف ساكنا كتمثال نحاسى حتى تأكد من استغراقها فى النوم مرة أخرى ، فوضع ساقيه فى السروال الصوفى الخفيف ، ودس ذراعيه فى فتحتى الصديرى ، وسار على أطراف أصابعه حتى باب الشقة حيث ارتدى الحذاء المطاطى ! واجهته مشكلة لم تخطر بباله ! كيف يفتح المزلاج الحديدى المتشبث بالصدأ والرطوبة دون أن يحدث صوتا يوقظ حورية من سباتها ؟! إن كل ما فكر فيه وما خطط له يمكن أن ينقلب رأسا على عقب لو استيقظت ! كل ما يتمناه أن تظل نائمة حتى يضع قدميه فى قاربه فى رحلة العمر أو رحلة الموت !

وضع يده على المزلاج محاولا دفعه فى هدوء دون جدوى ! كيف نسى أن يترك المزلاج مفتوحا بعد خروج عم عبد الرحمن بالأمس ؟! لا فائدة من الندم ، ولا بد من المحاولة بأسرع ما يمكن ، فكل دقيقة تمر محسوبة عليه ! وضع أصبعه بين مقبض المزلاج والعروة حتى يمتص صوت الاصطدام ، حتى لو أدماه ! كرر المحاولة وملوحة عرق جبينه تتسلل تحت جفونه ، وإذ به يشعر بنصل حديدى يطعن أصبعه الذى تفجرت منه الدماء ، لكنه لم يعبأ ! كان المزلاج قد فتح دون ضجيج يذكر ، فدس أصبعه بين طيات كفه وأحضان الأصابع الأخرى ، وهو يفتح الباب ليرى الطريق لأول مرة منذ عودته إلى السجن الاختيارى ! تذكر مرسى فى سجنه الإجبارى فأسرع إلى الخارج وهو يغلق الباب فى هدوء مميت ! خيل إليه أنه سمع صوت حورية

وهى تناديه باسمه لكنه أطلق ساقيه للريح وهو ينظر من حين لآخر خلفه لكنه لم يجد لها أثر !

انحرف يسارا صوب الساحل فشاهدته عجوز تحمل قسط لبن فصاحت : بسم الله الرحمن الرحيم ! ثم أطلقت ساقيها للريح حتى تعثرت فى نتوء صخرى اختفى تحت أشواك الحسك والصبار ، فسقط القسط وتناثر اللبن الذى سرعان ما شربته الرمال العطشى ! لكن يونس يمم وجهه شطر الساحل كالسهم المارق خشية أن يراه آخرون فيعوقون تقدمه ! لمح على البعد قاربه الصغير المشدود بسلسلة صدئة إلى خازوق تآكل تحت وطأة الطحالب الخضراء الزلقة ، فتحول يونس إلى نورس يرفرف تجاهه محاولا تجنب أشواك الحسك والصبار النائة بين فجوات الصخور الرملية ! كيف لهذا النبات الضعيف أن يقهر الجفاف والملوحة والصخر ، ويظل شاهرا أشواكه للدفاع عن كيانه ووجودة ، فى حين يتخاذل أهل البلد وأصحابها فى مواجهة بعض الكلاب الضالة وإن كانت مسعورة ؟!

الويل لك يا رعاد الكلب !! إن كان لا بد ليونس أن يموت ، فليمت على رءوس الأشهاد ، وليس فى الظلمات غريقا مثل جثة هامدة ، حتى يصبح روحا يسرى فى الجميع ، وثورة متجددة تجرى فى العروق ضد كل من يحاول قهر الإنسان ، والسير بحذائه النظيف اللامع على كرامته ، ظنا منه أنه من طينة أخرى غير طينة البشر !

فك يونس السلسلة الصدئة اللزجة وجذب القارب الذى ترك خطا غائرا فى الرمال المبتلة حتى غاص فى الأمواج التى شدته إلى داخل البحر ، فقفز إلى قلبه وأمسك بالمجدافين يضرب بهما فى عنفوان متصاعد مع خواطره

المتلاطمة كالأمواج المتلاحمة تحته ! وكأنه كتب عليه أن يقوم بهذه الرحلة لثالث مرة ! الأولى مع مرسى فى سباق رهيب لإنقاذه ، والثانية على اللوح الخشبى فى لقاء مع الموت وجها لوجه !

توغل القارب لكن يونس لمح شبح حورية عند الأفق وحولها أشباح نساء اتشحن بالسواد ويحاولن الإمساك بتلابيبها ، وهى تجرى بين الخازوق المتآكل والساحل الذى أصبح بعيدا ! وخيل إليه أن الريح قد نقلت إلى أذنيه رجع صدى ولولتها التى أصبحت حقيقية ! لهج لسانه وهو ينظر إلى السماء وطيور النورس التى تحوم حوله وتحييه : لها الله ! إنه قدر كتب علينا ولا بد من الذهاب للقائه تحت الشمس بدلا من انتظاره ليطبق علينا فى جحورنا المظلمة !

ابتعد عن طيور النورس وسعد لخفوت صياحها المتقطع الحزين الذى امتزج بولولة حورية التى ظن أنه سمعها ! وسرعان ما تلاشى الساحل أيضا ، وأصبح بين الماء والسماء فى رحلة المصير الذى سينجلى مع شروق الشمس التى كشفت عن بوادرها فى استحياء شديد عند الأفق ! انهمك فى التجديف بكل الطاقة المتقدة داخله فى محاولة للهروب من الخواطر القلقة التى تطير بخياله إلى الساحل مرة ثم تجذبه إلى قلب البحر مرة أخرى ، ومن الاحتمالات والتوقعات والنتائج التى يمكن أن تترتب على ما سوف يقع ! قبضت ذراعاه الحديديتان على المجدافين الخشبيين اللذين ضربا الماء فانطلق القارب كسهم يشق العباب ، وصوت داخله ، ردد الأفق رجع صداه ، يهمس فى حمية مبحوحة : فليكن ما يكون !

نظر خلفه فرأى المراكب عند الأفق تفصل بين الماء والسماء فدق قلبه فى

خفقات عنيفة ! لكنه لن يخوض المعركة بمفرده ! فسرعان ما يزول الذهول ويستقبلونه بالقلوب المفتوحة إذا عجزوا عن احتوائه بالأحضان المغلقة عليه ! لا بد أن يفعل ظهوره السحرى فى نفوسهم مفعول السحر ! لا بد أن تدب فيهم عزيمة قادرة على دك الجبال ! فلن يمر ما خطط له مر الكرام عليهم أو على عصابة الكلاب ! إنهم فى حاجة إلى هزة عنيفة تزيل الصدأ عن معدنهم الثمين الأصيل ! عندئذ سيرون أنفسهم عمالقة تطاول هاماتهم السحاب ، وكلاب البحر مجرد حيوانات ضالة ترتعد من كل من يحاول أن ينحنى على الأرض ليلتقط حجرا !

ملأ صوت الفراغ أذنيه بحفيف البحر المهيب فلم يسمع غناء الصيادين ! هل قام عم عبد الرحمن بمهمته على أحسن وجه ممكن ؟! لا لزوم لمثل هذه الأسئلة فهو يقترب ويخفف من ضربات المجدافين بحثا عن المركب الرئيسية ! استدار فوجدها شامخة فى مواجهة مركب أخرى والغزل مشدود بينهما ، وقد انكب عليه الصيادون من الناحيتين فى حين انهمك بعضهم فى ضرب المياه بالمدراة حول الغزل وتحته ! سعد يونس بصخب المياه ورذاذها حتى يستدير فى هدوء وخفية ليلتصق بالجانب الآخر من المركب !

أمسك بعامود الدفة ونظر إلى أعلى فلم يجد أحدا ! هل يدور بقاربه ليواجه الصيادين فى الناحية الأخرى ؟! لا .. ربما أحدث ما لا تحمد عقباه ! أين أنت يا عم عبد الرحمن ؟! كل ما يتمناه الآن حبل يصعد به إلى السطح ؟! ظل ناظرا إلى أعلى والقارب يتأرجح تحته وقلبه يلهج فى تساؤل حار : أين أنت يا عم عبد الرحمن ؟!

(بحر الظلمات)

وكأن العجوز سمع وجيب قلبه وخفقاته فإذا به يطل بوجهه الأسمر الذى أضاءته لحيته البيضاء الخفيفة برغم القلق المشع من عينيه الخابيتين ! عبرت وجهه ابتسامة انثنى على أثرها ليختفى ويظهر مرة أخرى بحبل غليظ ألقاه ليرتطم طرفه بحافة قاربه ! أمسك به يونس بأصابع من حديد ليتسلقه فى خفة لم يشعر بمثلها من قبل ! قبض يونس على حافة الجدار فجذبه عبد الرحمن إلى الداخل هامسا :

ـــ حمدا لله على السلامة ! سأذهب لأخبر الصيادين حتى لا تغتالك الكلاب خلسة مرة أخرى .. وحتى أبعد عن نفسى شبهة الجنون !

استدار عبد الرحمن ليجد عباس واقفا وقد فتح فاه ، ورفع يده بهراوته عاجزا عن تصديق عينيه ! اقترب يونس فى حركة خاطفة للهراوة ولكمه فى وجهه لكمة تبعتها بعض ضربات الكاراتيه بالذراع والقدم حتى ارتمى عباس على أحد الألواح الخشبية محاولا النهوض مرة أخرى دون جدوى ! هرع عبد الرحمن إلى الجانب الآخر حيث تكأكأ الصيادون على الغزل وإذ بالشيخ النحيل يتحول إلى شاب فى عنفوانه ، وصوت جهورى مجلجل :

ـــ يونس البرهومى لم يمت يا رجال ! يونس البرهومى حى يرزق يا رجال ! يونس البرهومى هنا .. الآن .. بينكم حتى تصدقونى !! لم أكن أهذى ! ها هو أمامكم بلحمه ودمه !

ترك الصيادون الغزل ، وتوقف الضاربون بالمدراة ، وفتحت كلاب البحر أفواهها ، وساد سكون كالعدم لم يقطعه سوى همسات مبحوحة هنا وهناك : بسم الله الرحمن الرحيم ! بسم الله الرحمن الرحيم ! حلم أم علم ؟! سبحان الله العلى العظيم ! كان عم عبد الرحمن صادقا فى كل كلمة قالها !

سار يونس بقامته الطويلة الممشوقة بينهم ، مبتسما لهم دون أن يمد يده بالسلام ثم وقف :

ـــ ها أنذا بينكم ! لست شبحا ! وإنما اختفيت فترة لأظهر لكم مرة أخرى وأؤكد لكم عمليا أن الحق لا بد أن يظهر مهما حاولت الظلمات إخفاءه !

صاح عنتر وهو يجرى تجاه القمرة :

ـــ غير معقول ! لا أكاد أصدق عينى !

قفز عنتر على الدرجات الخشبية ليفاجأ بعويس صاعدا عليها فى تساؤل حتى كاد أن يصطدم به :

ـــ ما لك ؟! لماذا توقف الصيادون ؟! ماذا جرى ؟!

خفق قلب عنتر بشهقات متتابعة :

ـــ لن تصدقنى يا ريس ! عاد يونس البرهومى إلى الحياة !!

ـــ هل جننت ؟! ماذا تقول يا معتوه !

ـــ تعال لترى بنفسك !

دق عويس الأرض بساقه وعكازه ، وهو يحك بأظافره لحيته الكثة فى قلق لم يحاول إخفاءه حتى بلغ دائرة الصيادين التى التفت حول يونس وهو يقول لهم :

ـــ لن نتخلى عن حقنا بعد اليوم ! والذين قتلونى واتهموا مرسى بقتلى لا بد أن يلقوا جزاءهم !! فلا يزال على الأرض حق وعدل !!

لمح الكلاب عويس قادما وخلفه عنتر فهرعوا إليه وقد تقلصت أصابعهم على الهراوات والخناجر والمسدسات : ...

— ماذا نفعل يا ريس ؟! يتكلم كما لو كان قد استولى على المركب !!

لم يرد عويس وإنما اخترق الدائرة وهو لا يكاد يصدق عينيه ! أو عينه السليمة إذ أن الزجاجية أوشكت على السقوط من محجرها ! فجأة صاح فى يونس الذى لم يفقد ابتسامته المشعة :

— ها قد عدت يا يونس ؟! إذاً .. فالأمر كله لم يكن يعدو أكذوبة قذرة حقيرة ! تختفى لتعرض المسكين مرسى لحبل المشنقة !

صاح يونس بصوت أعلى :

— لا تتكلم يا عويس عن مرسى ! فقد سمعتك بنفسى وأنت تحكى لزوجتى اتهامك لمرسى وسعادتك بسجنه ! لكن خطتك القذرة الحقيرة فشلت تماما !! وها أنذا أعود لأقدم الدليل المادى على براءة مرسى .. وعلى اتهامكم بقتلى !

نظر إليه فى شذر محاولا تصغير حجمه الذى تعملق فجأة :

— كيف تكلمنى يا ولد بهذا الأسلوب ؟!

— كما تكلمنى تماما ! كلنا من الآن سواسية ! ولن أسمح لك أن تنجرف بعيدا عن الموضوع الذى عدت من أجله !

هز عويس ساقه الخشبية فى عصبية مرتعشة :

— وما هو هذا الموضوع ؟!

— لن أقوله إلا لسيدك !! فأنت عبد المأمور !

— لن أرد عليك !! فهذا الموضوع لن يحسمه سوى البك الكبير فعلا ! لقد دللكم كثيرا وآن الأوان لتروا ما لم تروه من قبل حتى تتعلموا الأدب !

ثم استدار لعنتر وعتريس وعباس الذى عاد إلى وعيه :

ـــ إياكم أن تتركوه يهرب !

طفح التهكم الصاخب على ضحكة يونس :

ـــ لم أعد بنفسى إلى هنا كى أهرب منكم! سأصل معكم اليوم إلى آخر المدى!

شعر يونس بقوة خارقة تمور داخله بعد أن تلاشت كل أعراض القلق والحيرة فى حين تحول الصيادون إلى تماثيل من العجز عن استيعاب ما يجرى ! عاد عويس إلى القمرة وصدره يلهث فى صعود وهبوط مثل المياه المتماوجة تحت المركب ! اتصل باللاسلكى لينقل النبأ المحير المذهل فإذا به لا يملك سوى أن يقول :

ـــ لا يا سعادة البك .. أنا فى كامل قواى العقلية !! ولم أقرب الحشيش أو الخمر منذ ليلة أمس !.......... نجح الملعون فى الاختفاء وتضليلنا كلنا !.......... إذا لم نحسم الأمر سنصبح مضغة الأفواه الساخرة !..... حاضر .. تمام يا سعادة البك ....وهو كذلك يافندم ! مع السلامة .

عاد عويس ليدق الأرض فى ثقة متجددة بساقه الخشبية حتى اخترق الدائرة وقد تعلقت العيون الحائرة به ! صاح فى يونس الذى لم تهتز ابتسامته الساخرة :

ـــ عدت للموت بقدميك ! نحن فى انتظار البك الكبير ليؤدبك أنت وأمثالك بنفسه ! فما هكذا يكون رد الجميل !!

ـــ الله الغنى عن جمائلكم وإقامة السرادقات لقتلاكم !

صرخ عويس فى رجاله بصوت كسوط على وجوههم :

ـــ امسكوه !! قيدوه !! اربطوه إلى الصارى لحين قدومه !

تقدم عباس وعنتر وعتريس فى حين شهر بقية الكلاب خناجرهم

ومسدساتهم ، وعويس يواصل صرخاته :

ـــ اقتلوا أى كلب يحاول مجرد الاعتراض !

قبضوا على ذراعى يونس بأصابع فولاذية فى حين حاول بعض الصيادين التقدم خطوة أو خطوتين لتخليصه لكنه نهرهم :

ـــ لا !! الآن تكفينى قلوبكم !! فمعركتنا ليست مع هؤلاء !! ولكن مع رأس الأفعى !

اقتادوه دون أية مقاومة منه وقد شدت إليه العيون بخيوط من رعب مرير ، فى حين تحولت المراكب الأخرى إلى كتل خشبية طافية شدت الشباك فيما بينها ، وعيون محدقة تكاد تقفز إلى المركب الرئيسية ، وقلوب واجفة لا تعى ما سوف تأتى به اللحظات القادمة ! قيدوه إلى الصارى ووقفوا حوله شاهرين أسلحتهم للرجال العزل الذين لا يحملون سوى بعض المطاوى الصغيرة التى تستخدم فى الصيد !

ظل يونس مبتسما فى سخرية لعويس الذى لم يحتمل النظر إليه فسرح بعينه السليمة عبر الصفحة الزرقاء حتى الأفق قائلا :

ـــ سيجعل منك عبرة لمن يعتبر ! لكل شىء حدود !

ضحك يونس وقد قلب شفته السفلى ازدراء :

ـــ عشنا وشفنا أمثالك يلقنوننا درسا فى الحدود ! لكنك لا تعرف الدرس الذى سألقنه لك ولسيدك !

ـــ ماذا تنوى أن تفعل وأنت معلق كالخروف عند الجزار ؟!

ـــ أنت تعلم فى داخلك أننى أقوى منك ومن سيدك ! لكنك لا تدرى السبب ! ومع ذلك سأقوله لك ! القوة هى قوة الروح وليست قوة الجسد

أو المسدس أو المطواة أو الهراوة !!

أطلق عويس ضحكة عربيدة صاخبة سمع الأفق صداها :

ـــ روحى !! يا روحى !! زدنا من علمك !! فتح الله عليك !!

ـــ أمثالك لا يفهمون مثل هذا الكلام ! لكن هذا لا يمنع أنك مؤمن فى قرارة نفسك أننا أقوى منكم ! ولو نظرت فى عيون الرجال حولك لركبك الرعب الأزلى !

وجد عويس نفسه وهو يستدير ، دون تفكير ، متفحصا العيون المتعلقة بيونس لكن سرعان ما ارتد بصره مرة أخرى إلى الصارى وصوت يونس يكاد يخترق أذنيه :

ـــ ألم أقل لك ؟! الرعب الأزلى يكاد يقتلك وإن تظاهرت بعكس ذلك !!

صاح عباس الواقف إلى جوار يونس :

ـــ دعنى أضربه يا ريس على فمه حتى يخرس !

ـــ لو كان الأمر بيدى لقتلته واسترحت ! لكنها أوامر البك !

وسرعان ما سمعوا صوت محرك لقارب كبير أنيق يشق المياه تجاه المركب ، كالسهم تاركا خلفه خطا عريضا من الزبد الأبيض ! كانت ألوانه تتراوح بين الأبيض الناصع والأزرق الزاهى والفضى اللامع ! كان الرعاد واقفا خلف عجلة القيادة مرتديا زى البحارة ، الحلة البيضاء والكاب الأبيض ، وعلى عينيه نظارة داكنة ذات إطار سلكى ذهبى ! لكن كرشه المتكور أصر على تشويه الأناقة المتناغمة مع ألوان القارب وكابينة القيادة الصغيرة !

أوقف القارب محركه ، وهدأ من سرعته حتى التصق بالإطارات المطاطية المحيطة بأسفل جدار المركب الرئيسية ! أسرع عويس ومعه عباس فأنزلا سلما خشبيا وضع قدميه فى بطن القارب حيث أمسك بهما أحد مساعدى الرعاد الذى صعد فى تؤدة على درجاته برغم اهتزازه مع ريح هبت فجأة وقد جلبت معها موكبا من السحب الرمادية الداكنة التى أخفت وجه الشمس وأثارت قشعريرة كهربية فى النفوس المشدودة !

مد عويس يده لسيده الذى قفز فى غير رشاقة إلى المركب والريح تكاد تطير بالكاب من على صلعته فى حين أسرع مساعده إلى الصعود خلفه وظل الثانى بالقارب الذى شد بحبل متين إلى إطار مطاطى مثبت فى الجدار . كانت الريح تهز المركب فلم يسر الرعاد فى ثبات حتى بلغ الصارى صارخا فى يونس وهو يشير بأصبعه إلى الصيادين :

ــ أمام هؤلاء الرجال .. أبنائى الأحباء .. أنا مستعد للعفو عنك إذا اعترفت بالسبب وراء فعلتك الشنعاء هذه !! وإذا أعلنت توبتك عن مثل هذه الصغائر التى لا تليق برجل !! وإذا طلبت الصفح والمغفرة !

كان الصارى يميل يمنة ويسرة مع الريح التى شددت من هجومها حتى غابت الشمس تماما ، وأصبح الظهر المتألق مغربا داكنا ، وتناثر شعر يونس على جبينه وعينيه ، وانتفخ السروال والصديرى بالهواء المتقلب ، ومع ذلك خرج صوت يونس رصينا جهوريا طاغيا على حشرجة الريح وصريرها :

ــ أولا .. هؤلاء الرجال .. أبناؤك الأحباء طالما أنهم مستسلمون تحت رحمتك !! أما عن توبتى عن مثل هذه الأفعال فأعدك أنها لن تتكرر لأن الإنسان لا يموت سوى مرة واحدة فقط !! وأنا مت على يديك بما فيه

الكفاية !! أما عن طلب الصفح والمغفرة فالإنسان لا يطلبهما إلا من الله سبحانه وتعالى !!

صمت للحظات حتى يلتقط أنفاسه فمال الرعاد على أذن عويس وهمس بكلمتين أو ثلاثا أسرع الأخير على أثرها إلى القمرة فى حين صرخ الرعاد مع الريح التى أحالت البحر إلى أمواج متصارعة من الفضة والرصاص :

ـــ ثم ماذا ؟! لا تستغل سماحتى أكثر من هذا فأنت لا تعرف رهبتى وجبروتى !! فلا تزال الفرصة سانحة أمامك لآخر مرة !

اهتزت المركب فى عنف فانقطع الغزل الذى كان يشدها إلى المركب الأخرى ، وفى هزة ثانية أوشك الرعاد على السقوط أرضا ، فى حين سقط عويس بالفعل ، وهو قادم بسوط سلكى مغطى بجلد ناعم لامع ! لمح عم عبد الرحمن السوط فارتعد وسقطت من عينيه دمعتان ولهج قلبه فى صمت : فديتك يا يونس !

نهض عويس من كبوته لكن يبدو أن ساقه الخشبية كانت تؤلمه مما ضاعف من عرجه حتى بلغ سيده الذى تناول السوط محدثا به فرقعات كمدرب الأسود فى حلبة السيرك ! ومع ذلك نضحت ابتسامة يونس بسخرية كادت أن تقتل الرعاد فى وقفته المهتزة وسط عواء الريح ولطماتها ! فصاح بفرقعة جديدة من السوط ونظراته تتنقل بين العيون الواجفة فسعد بالدموع فى بعضها :

ـــ هل ستظل صامتا هكذا يا جبان ؟! ألن تعترف بالسر فى فعلتك الشنعاء أيها الكذاب النصاب ؟!

افترشت الابتسامة وجه يونس الذى صاح مع أدراج الرياح :

— الموضوع ليس فيه سر على الإطلاق !.أما السر الحقيقى فقد أفشاه لى أبى قبل أن تغرقه بقاربه ! وهو سر تظن أن أحدا لا يعرفه لكن عجائز البلد يعرفونه !

فرقع بالسوط وصوته يكاد يحتبس :

— سر ماذا يا كلب ؟! ليس لدى سر أخفيه !! فأنا أعمل فى ضوء النهار دون أن يجرؤ أحد على اعتراض إرادتى !!

— إنه السر الذى يدفعك إلى إذلال كل من حولك ! لأن من ذاق الذل فى صباه وامتلأ قلبه بالحقد الأسود تصبح متعته الكبرى فى إذلال الآخرين الذين لا ذنب لهم !

— هذه آخر مرة أتكلم فيها معك .. بعد ذلك سيرد عليك هذا السوط يمزق جثتك إربا ! فالكل يعرفون أننى رجل عصامى بدأ حياته من الصفر معتمدا على ذكائه وموهبته حتى بنيت هذه الإمبراطورية التى تعيشون كلكم فيها وتتمرغون فى خيرها !! فأين هذا السر يا حقير يا حاقد ؟!

زمجرت الريح مع فرقعة الصوت لكن يونس لم يهتز مع المركب :

— السباب حجة الضعيف وسلاحه !!.أما السر فهو أنك كنت على استعداد لبيع أى شىء حتى تصل !! ولذلك فأنت حاقد على كل فقير يرفض بيع نفسه وشرفه برغم ثروتك الفاحشة التى جمعتها من عرقنا ودمنا !

— اخرس يا كلب !

وهبط السوط لأول مرة كالصاعقة ليلهب جسد يونس ويلصقه بالصارى ، ومع ذلك كتم الآهة بين أسنانه وشفتيه ثم صاح :

— اضرب كما تشاء ! فالحر لا يضرب الحر !

انهال السوط لكن عم عبد الرحمن تلقى اللسعة الملتهبة ليفدى يونس ويسقط على الأرض ، وإذ بالصيادين يقفزون كالنمور غير مبالين بالرصاص الذى أطلق أول الأمر فى الجو إرهابا ، ثم فى سيقانهم ، والخناجر التى مرقت يمنة ويسرة ، والهراوات التى انهالت على رءوسهم ! ومع ذلك أسرع اثنان منهم لفك وثاق يونس برغم طعنة خنجر فى كتف أحدهما والهراوة التى انهمرت على رأس الآخر !

انطلق يونس كالمارد بين رفاقه يضرب يمنة ويسرة فإذا بالرعاد يقع هلعا من منظره فالتقط السوط من يده وانهال به عليه ! وفى لحظات كانت المراكب الخمس معركة حامية الوطيس بين الصيادين والكلاب الذين أيقنوا لأول مرة أن التيار جارف ولا قبل لهم به ! فمع زمجرة الريح وصخب الموج وارتعاشة المراكب رجحت كفة الصيادين الذين تذكروا كل ما تعلموه فى الساحة الشعبية !

التف بعضهم حول يونس الذى طلب منهم تجهيز الشباك للصيد الثمين ! لتبتلع كلاب البحر واحدا بعد الآخر من أيدى الصيادين وأقدامهم التى كانت تقفز بهم برغم بعض الطعنات الغائرة ، والطلقات الكامنة ، والدماء المتدفقة وسط صيحات يونس بتوخى الحرص وعدم إصابة أحد منهم ! وكانت نشوته لا حدود لها عندما ألقى بالرعاد وعويس وعباس وعنتر وعتريس فى شبكة واحدة وقف حولها حراس من الصيادين لم يعينهم أحد للحراسة !

لم يصدق الصيادون أنفسهم عندما اكتشفوا أنهم عاشوا كل هذا الزمن

تحت رحمة فقاقيع مثل تلك التى تبدو على سطح الزبد ! كان الرعاد وكلابه ينتفضون رعبا فى شبكتهم ، خاصة عويس الذى فقد ساقه الخشبية فى المعركة حين أطاح بها أحد الصيادين فظلت طافية على زبد الأمواج حتى ألقت بها بعيدا !

حسمت المعركة على المركب الرئيسية برغم الإصابات المتعددة بين الصيادين الذين أسند بعضهم ظهره إلى الجدار محاولا كتم تأوهاته ! وعندما تلاشى صوت الرعاد ولم يعد يصرخ بالأوامر للفتك بهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر على المركب الرئيسية ، لم تجد الكلاب على المراكب الأربعة الأخرى سوى الاستسلام والانضمام إلى الصيد الكبير الذى لم يحلم به الصيادون فى يوم من الأيام !

أصدر يونس تعليماته لزملائه بإخراج الشباك الملقاة فى المياه بين المراكب ، فيكفيهم ما اصطادوه من كلاب البحر لتسليمها إلى السلطات بأسرع ما يمكن ! أسرع الصيادون برغم إصاباتهم وجروحهم وآلامهم إلى تجميع الشباك على سطح المراكب ، وسرعان ما دارت المحركات التى انداحت العاصفة أمام هديرها دون أن تخلف وراءها السحب الرمادية القاتمة ، بل رحلت فى أعقابها تباعا ، والقرص الذهبى يستعيد ابتسامته المتوهجة ، فى حين عادت الزرقة الممزوجة بالخضرة لتنام وتتهادى على سطح الأمواج المتراقصة فى نعاس بلا زبد ، وتخلصت المراكب من الزلازل الذى أجبر ألواحها الخشبية على الصرير والعويل فعادت إلى ثباتها الشامخ وهى تدير دفافها صوب البر الآمن !

كان يونس جالسا أمام الشبكة التى احتوت الرعاد وعويس وعباس

وعنتر وعتريس ، يدخن سيجارة أشعلها له عم عبد الرحمن الذى ربط رسغه بشريط من قماش أعلن عن الدماء التى تدفقت تحته ، وإذ بالرعاد المتكور فى حلته البيضاء البحرية الملوثة بالدماء والشحم والممزقة أعلى كتفه ، يقول ليونس فى محاولة لاستعادة رباطة جأشه ، واحترامه فى نظر رجاله الذين لم يكتموا وميض السخرية المريرة فى عيونهم :

ـــ ألا تعلم أن ما فعلتموه قرصنة بمعنى الكلمة ؟! فلن يرحم القانون من سرقوا المراكب وأسروا أصحابها الشرعيين !!

أجابه يونس وهو يشد ضمادة حول ساقه اليسرى وينفخ دخان سيجارته فى وجه الرعاد :

ـــ الآن تتمسح بالقانون والشرعية ! وهل كانت كل الجرائم التى ارتكبتها أنت وكلابك تحت مظلة القانون والشرعية ؟!

ـــ كنت طول عمرى مؤمنا أشد الإيمان بالقانون والشرعية !

ـــ أى قانون ؟! قانونك أنت ! قانون الغابة الذى يخول للقوى والغنى أن يلتهم الضعيف والفقير الذى لا يملك مجرد الحق فى الاحتجاج !! قانون الجشع الذى يضع الأغلبية الصامتة العزلاء تحت رحمة الأقلية الصاخبة المسلحة !! لا .. يا عوضين !! إن ملكية السفن لا تهمنا بعد أن ملكنا أنفسنا .. ويمكننا البدء من جديد وسوف نفعل !

خمد البريق فى عينى الرعاد الجاحظتين ، وبدت التجاعيد المحيطة بأنفه الذى يفترش وجهه غائرة كأخاديد صخرية وهو يلتفت لمن معه فى الشبكة كاشفا عن أسنانه الصفراء المتباعدة وأنيابه المغلفة بالذهب :

ـــ سأعرف كيف أؤدبهم كما عودتكم دائما !! كما سأعوضكم عن كل

ما جرى لكم أضعافا مضاعفة بمجرد بلوغنا البر !!

أشاح عويس بعينه الزجاجية بعيدا ليرمق فى حنق بالغ يونس الذى قال بصوت عال مبحوح :

ـــ حكمتنا بالخوف المعشش داخلنا أكثر من الخوف النابع منك !! فأنتم لا تخيفون امرأة عجوزا إذا ما رأتكم على حقيقتكم !

تأمل الرعاد فردة حذائه الضائعة وقال بصوت كسير :

ـــ على البر لنا حساب آخر !

ألقى عم عبد الرحمن بعقب سيجارته فى البحر وهو يرمق الرعاد :

ـــ الآن .. يستطيع كل واحد منا أن يشهد أمام السلطات بكل جرائمكم وهو واثق أن كل زملائه لن يترددوا فى تأكيد كل كلمة سيقولها ! فكلنا الآن يونس ومرسى !!

التقط يونس الخيط من عبد الرحمن وهو يلقى بدوره بعقب سيجارته فى البحر :

ـــ إذا كنت تظن أن السلطة لا تزال فى جيبك .. فأنت واهم ! فالسلطة تعتمد دائما على القوة المؤثرة فى البلد .. ولقد أصبحنا نحن هذه القوة .. وسترى !

سطعت الشمس فى كبد السماء مفترشة قمم الأمواج المتهادية ، والمراكب تشق قلبها بخطوط غائرة من الزبد الأبيض الذى لا يلبث أن يتلاشى وكأنه لم يكن ! بدا الساحل المقترب وقد فتح أحضانه لاستقبال أبنائه العائدين على غير ميعاد ! نهض يونس ليمسحه بعينيه فالتقط خطوطا سوداء لأشباح نسوة تحرك بعضهن جيئة وذهابا ، فى حين قبع البعض الآخر

كتماثيل ساكنة لا تعى !

تشبثت أصابع يونس بحافة السور محملقا فى الساحل لعل منظر حبيبة عمره وأمه وأخته يهبط على قلبه بالبرد والسلام ! ولولا النسوة المحيطات بحورية منذ أن غادر البر بقاربه فى الفجر الساكن الصامت لطارت نفسه شعاعاً ، وسقطت حطاما على صخرة المرارة الجاثمة على قلبه ! تقلصت قبضته على الحافة وقد نسى ألم كتفه وساقه ! لكن سرعان ما استرخت أصابعه ، وابتسامة نابعة من نور أضاء كهوف نفسه ، التصقت بوجه حبيبة العمر التى انطلقت مُلوحة بيديها الاثنتين ، وقد غمرت المياه ساقيها ، ووقعت طرحتها التى لم تأبه لها ، ولولا زميلاتها لعامت ببطنها المتكور حتى السفينة ! أما أمه وأخته فقد تحولتا إلى عيون ذاهلة وشفاه فاغرة !

لم يحتمل يونس المشهد طويلا فألقى بنفسه كالدرفيل قافزا سابحا لا يلوى إلا على حبيبة عمره التى أضاء وجهها ، بوميض عينيه السوداوين الواسعتين ، الوجود كله وسط تهليل الصيادين :

البحـــــر زفـــــــة   زفـــــة العـــــــرسان
يا ما فيها أخويـــــــا   زى عود الـــــــــزان
وحبيبتـــه عيــــــونها   عيـــــون الغـــــزلان
وفـــــوق نهودهـــــا   حب الرمــــــــــان
ده يوم فرحهـــــــــم   اشهـــد يا زمـــــان
لقـــــا الأحبـــــا   بعـــد طول حرمـــان
البحـــــر زفـــــــة   زفـــــة العـــــرسان

« تمت »

رقم الإيداع ٢٤٨٣ / ١٩٩٠
الترقيم الدولى ١ ــ ٠٥٧٠ ــ ١١ ــ ٩٧٧